ميزان الإيمان

قراءة معاصرة في تفسير

سورة محمد ﷺ



جمع وترتيب / راجي رحمة ربه

فيصل محسن مرجان

٢٠٢٦

ميزان الإيمان

قراءة معاصرة في تفسير سورة محمد ﷺ

جمع وترتيب / راجي رحمة ربه

فيصل محسن مرجان

٢٠٢٦

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل القرآن ميزانًا لا يزيغ، ونورًا لا ينطفئ، وهدىً لا يضل من اتبعه، والصلاة والسلام على من أرسله الله بالحق بشيرًا ونذيرًا، سيدنا محمد ﷺ، الذي بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين. أما بعد:

كتاب— **ميزان الإيمان**— هو **خلاصة ما كشفته سورة محمد ﷺ** لمن سيقرأها قراءة متأنية. فالسورة من أولها إلى آخرها تقيم **ميزانًا** لا يحابي أحدًا: تبدأ بحكم حاسم على الفريقين — ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ — ثم تمضي في كشف ما يظهر به هذا الميزان في واقع الحياة: في القتال، وفي موقف المنافقين من الوحي، وفي الابتلاء، وفي الإنفاق. فكل تكليف في السورة هو **اختبار**، وكل موقف هو **كشف**، وكل ابتلاء هو **ميزان**.

وقد لفت نظري في هذه السورة أنها **لا تعرف المنطقة الرمادية**؛ فالإنسان فيها إما مع الحق أو مع الباطل، وإما صادق في دعواه أو منافق، وإما مستجيب عند التكليف أو متولٍّ عنه. وليس هذا تقسيمًا نظريًّا، بل هو ما يظهر في المواقف: فالذي يستمع إلى الوحي ثم ينصرف كأنه لم يسمع، والذي يخاف حين يُطلب منه القتال، والذي يبخل حين يُطلب منه الإنفاق — كل هؤلاء تكشفهم السورة على حقيقتهم، لا لأنهم قالوا شيئًا، بل لأن **الميزان** أظهر ما في قلوبهم.

ومن هنا جاءت فكرة هذا الكتاب: أن أقدّم **قراءة معاصرة** لسورة محمد ﷺ، لا بمعنى إعادة تفسيرها وفق أهواء العصر، ولا بمعنى تحميلها ما لا تحتمله، بل بمعنى **استحضار ميزانها** في واقع أمة تواجه اليوم صراعًا مركّبًا: عدوًّا ظاهرًا، وتخاذلًا باطنًا، وبخلًا يُثقل القلوب، ونفاقًا يتخفى خلف الشعارات. فالسورة لم تُنزل لتُقرأ حروفًا، بل لتُعاش واقعًا؛ وهي تقول لنا اليوم ما قالته لأول من سمعها :**من كان مع الله نصره الله وأصلح باله، ومن كان على الباطل خاب سعيه وضل عمله.**

وقد اعتمدت في هذه القراءة على **التفسير التحليلي الموضوعي** :تفسير الآيات في سياقها، ثم ربطها بالخيط الجامع الذي ينتظم السورة، ثم الكشف عن **النظم** الذي يجعل مطلعها

وخاتمتها يلتقيان، ويجعل مقاطعها يتساند بعضها مع بعض تبدأ بالتمييز بين الفريقين، وتنتهي بالتحذير من التولي والاستبدال، وبين الطرفين نتتابع مشاهد الإيمان والعمل والنفاق والابتلاء والبذل. وقد لاحظت تكرار **لفظ الأضغان** في موضعين متباعدين — في كشف المنافقين، وفي الحديث عن البخل — وكأن السورة تقول: ما تخفيه القلوب من عداوة يظهر عند طلب البذل كما يظهر عند طلب القتال.

وقد جمعت في هذه القراءة بين **التفسير بالمأثور** عند صحته، و**التحليل اللغوي والبلاغي** الذي يُبرز دقائق النظم القرآني، و**التحرير العقدي** الذي يثبّت أصول الاعتقاد، و**الدلالات التربوية والمقاصدية** التي تُنزّل معاني السورة على واقع النفس والأمة. ولم أقصد إلى حشد الأقوال والخلافات، بل إلى **الوصول إلى القلب**؛ لأن أعظم غاية التفسير أن يُحوّل معاني القرآن إلى يقينٍ يسكن القلب، وعملٍ يسير على الجوارح.

وانتظم الكتاب في تسعة أقسام: بين يدي السورة والتعريف بها، ثم استكمال البناء الموضوعي في ضوء وحدة المطلع والخاتمة، ثم التفسير التفصيلي مقطعًا مقطعًا، ثم الوحدة الموضوعية والنظم، ثم المقاصد والهدايات الكلية وتنزيلها المعاصر، ثم الخاتمة الجامعة، ثم الهوامش والمراجع.

وما هذا العمل إلا محاولة اجتهادية تُقدّم للقارئ **مفاتيح تدبرية**، وتفتح له بابًا لمزيد من النظر؛ فكلام الله لا تنقضي عجائبه. فإن أصبنا فمن الله وحده، وإن أخطأنا فمن أنفسنا، والله أسأل أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرزقنا وإياكم تدبر كتابه والعمل به. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

والحمد لله رب العالمين.

القسم الأول :بين يدي سورة محمد والتعريف بها

تمهيد :السورة وقضيتها الكبرى

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدايةً للناس، ونورًا للقلوب، وشفاءً لما في الصدور، وجعله كتابًا محكمًا تتجدد معانيه بتجدد النظر والتدبر، وتتكشف أسراره لمن أقبل عليه بعلم وإنصاف، وصلاةً وسلامًا على سيدنا محمد، الذي بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، وبيّن للناس ما أنزل إليهم من ربهم. أما بعد:

تأتي سورة محمد في سياق قرآني يعالج حقيقة الإيمان حين ينتقل من الاعتقاد إلى مقتضياته العملية، ويكشف موقف الإنسان من الحق إذا دعاه إلى التضحية والصبر والثبات، ويقيم المقابلة بين الذين آمنوا فاتبعوا الحق، والذين كفروا فصدوا عن سبيل الله.

وليست السورة حديثًا عن القتال بمعزل عن أصول الإيمان والعبودية، ولا خطابًا حربيًّا منفصلًا عن الأخلاق والعدل والجزاء؛ بل هي بناء قرآني متكامل تتداخل فيه حقيقة الرسالة، وموقف المكذبين منها، وسنة التدافع بين الحق والباطل، وأحكام القتال وأسرى الحرب، وابتلاء المؤمنين، وكشف أحوال المنافقين، ثم تنتهي إلى تقرير حقيقة الإنفاق، والتحذير من التولي عن طاعة الله، وبيان أن استبدال المؤمنين بغيرهم لا يضر الله شيئًا.

ومن هنا يظهر أن القتال في السورة ليس مقصدًا مستقلًّا عن الإيمان، وإنما يأتي في موضعه من بناء الأمة المؤمنة التي لا تقف عند مجرد الإقرار بالحق، بل تلتزم مقتضياته، وتتحمل تبعاته، وتثبت عليه حين تتعارض دعوى الإيمان مع مشقة التكليف.

وتبدأ السورة بحكم حاسم في مآل الفريقين :إحباط أعمال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وتكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم .ثم تنتقل إلى بيان علة هذا الاختلاف :اتباع أولئك الباطل واتباع هؤلاء الحق .وبعد ذلك تعرض أحكام القتال وأسرى الحرب، وتكشف سنن النصر والابتلاء، وتفضح أحوال الذين يكرهون ما أنزل الله، وتختم بامتحان صدق الإيمان في ميدان الطاعة والإنفاق.

فكأن السورة تنتقل بالقارئ من الحكم على الموقف من الرسالة إلى اختبار صدق الاستجابة لها، ومن تقرير سنة الصراع إلى بيان ما يكشفه هذا الصراع من حقيقة القلوب، ثم إلى

المعيار الأخير الذي يتميز به الصادق من المتولي :بذل ما أمر الله ببذله، وعدم الاستعاضة عن طاعة الله بدعوى الانتساب إلى الإيمان.

أولًا :اسم السورة وأسماؤها ودلالة التسمية

اشتهرت هذه السورة باسم **سورة محمد**، وهو الاسم المثبت في المصاحف وكتب التفسير، وسميت بذلك لورود اسم النبي ﷺ فيها صريحًا في قوله تعالى:

قال الله تعالى :﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ (محمد :٢)، وفي ذلك إظهار لمكانة الرسالة المحمدية، وربط الإيمان بالنبي ﷺ بما أنزل عليه من الحق، لا بمجرد الانتساب إليه أو دعوى محبته.

وتُعرف كذلك باسم **سورة القتال**؛ لاتصال جانب ظاهر من بنائها بأحكام القتال، ولا سيما قوله تعالى في مطلعها:

قال الله تعالى :﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ (محمد :٤)، فالقتال وما يتصل به من أحكام اللقاء والأسر والفداء حاضر في السورة حضورًا مؤثرًا، لكنه لا يستوعب جميع مقاصدها؛ إذ تمتد موضوعاتها إلى الإيمان والنفاق والإنفاق والابتلاء والجزاء.

والاسمان متكاملان في الدلالة :فاسم محمد يبرز صلة السورة بالرسالة والوحي، واسم القتال يبرز ميدانًا من ميادين الاستجابة العملية لهذه الرسالة .ولا ينبغي أن يُفهم من الاسم الثاني أن السورة محصورة في أحكام الحرب؛ فإن الاعتبار في فهم السورة بمجموع نظمها، لا بمجرد اسم من أسمائها.

ثانيًا :مكية السورة ومدنيتها

سورة محمد مدنية، وهذا هو المشهور عند أهل التفسير وعلوم القرآن .وتدل مضامينها على ذلك؛ ففيها أحكام القتال وأسرى الحرب، وخطاب المؤمنين في مواجهة المشركين والمنافقين، وذكر من يكرهون ما أنزل الله بعد ظهور أمر الإسلام وقوته.

ومن أبرز القرائن قول الله تعالى :﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (محمد :٢٠).

فالآية تصور جماعة تنتظر نزول الحكم، فلما جاء الأمر بالقتال ظهر ما كانت تخفيه من ضعف الاستجابة والخوف من التكليف .وهذا من أحوال المجتمع الإسلامي في المدينة، حيث انتقل المسلمون من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة بناء الجماعة والدولة ومواجهة الاعتداء.

ومما يؤكد مدنيتها اشتمالها على أحكام أسرى الحرب والفداء، وعلى معالجة ظاهرة النفاق التي برزت في المجتمع المدني.

ولا يلزم من مدنية السورة أن تكون جميع آياتها قد نزلت في مناسبة واحدة أو زمن واحد؛ فالحكم على السورة بالمدنية لا يمنع تعدد أوقات نزول آياتها، ما لم يثبت دليل خاص يقتضي خلاف ذلك.

ثالثًا :عدد آياتها وترتيبها

عدد آيات سورة محمد ثمان وثلاثون آية، وهي السورة السابعة والأربعون في ترتيب المصحف الشريف، وتقع بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الفتح.

وهذا الموضع له دلالة ظاهرة عند النظر في ترتيب المصحف :فسورة الأحقاف تقرر أصول التوحيد والرسالة والبعث، وتعرض موقف المكذبين من الوحي، ثم تأتي سورة محمد لتبين مقتضيات الإيمان بالوحي حين يصبح تكليفًا والتزامًا ومواجهة، ثم تأتي سورة الفتح بما تحمله من بشائر النصر والصلح والتمكين.

وهذه مناسبة تدبرية في ترتيب المصحف، لا يصح تحويلها إلى دعوى بأن ترتيب النزول كان مطابقًا لترتيب السور في المصحف.

رابعًا :ترتيب نزولها وأسباب نزولها

ينبغي التفريق هنا بين ثلاثة أمور :ترتيب السورة في المصحف، وترتيب نزولها، والأسباب الخاصة التي نزلت آيات معينة بشأنها؛ فهذه مسائل متمايزة، ولا يصح أن يُستدل بأحدها على الآخر دون بينة.

أما ترتيبها في المصحف، فقد تقدم أنها السورة السابعة والأربعون .وأما ترتيب نزولها، فهي من السور المدنية، لكن تعيين منزلتها الدقيقة في ترتيب النزول يحتاج إلى نقل معتمد، ولا أجزم برقم لها في ترتيب النزول دون مقابلة الرواية المعتمدة والتحقق من اختلاف قوائم الترتيب.

وأما أسباب النزول، فلا يصح أن يُجعل مضمون القتال في السورة وحده دليلًا على أنها نزلت عقب غزوة معينة، أو أن تُربط جميع آياتها بواقعة واحدة .فالأصل أن سبب النزول الخاص لا يثبت إلا برواية معتبرة صريحة أو بما يقوم مقامها من الدليل.

والذي يظهر من النظر في السورة أن آياتها تعالج مرحلة مدنية أصبح فيها القتال تكليفًا شرعيًّا، وظهرت فيها مواقف متفاوتة من الاستجابة لهذا التكليف .ويتضح ذلك في قوله تعالى:

قال الله تعالى :﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ (محمد : ٢٠)، فالآية تكشف التفاوت بين من يستبشر بالتكليف ويطلبه، ومن يظهر منه الضعف حين يصبح الأمر ملزمًا .وقد فسر الطبري والقرطبي وابن كثير الآية في سياق تمني المؤمنين نزول ما يتصل بالقتال، ثم انكشاف حال أصحاب المرض عند ورود الأمر به .وتراجع هذه المعالجة في تفاسيرهم عند الآية المذكورة .١

ولا أرى أن يُجزم بأن هذه الآية نزلت في غزوة بعينها دون نقل صحيح يخصصها بذلك؛ فدلالتها العامة في كشف موقف المنافقين وضعفاء الإيمان ثابتة من نظمها نفسه.

خامسًا :مقصد السورة العام

الذي يظهر من مجموع السورة أن مقصدها الجامع هو:

بيان حقيقة الإيمان بالرسالة المحمدية وآثاره العملية في الثبات والنصرة والطاعة، وكشف التفاوت بين صدق المؤمنين ونفاق المترددين، وبيان سنن الله في الصراع بين الحق والباطل، وأن العاقبة مرتبطة باتباع الحق والتقوى وبذل ما يقتضيه الإيمان، لا بمجرد الدعوى والانتساب.

وهذا المقصد يجمع أطراف السورة ولا يحصرها في القتال، فالقتال أحد ميادين ظهور حقيقة الإيمان، كما أن الإنفاق ميدان آخر، والثبات عند نزول الأحكام ميدان ثالث، والإعراض عن الوحي مظهر من مظاهر فساد الباطن.

ومن دقة المطلع أنه لم يبدأ بذكر القتال، وإنما بدأ ببيان مآل الفريقين قال الله تعالى :﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (محمد :١-٢)، فالسورة تؤسس أولًا للميزان الذي تُفهم في ضوئه سائر أحكامها :فريق اتخذ الكفر والصد عن سبيل الله طريقًا، فكانت عاقبته إضلال العمل وإبطاله؛ وفريق جمع الإيمان والعمل الصالح والإيمان بالوحي المنزل على محمد ﷺ، فكانت عاقبته تكفير السيئات وإصلاح الحال.

ثم يأتي التعليل الذي يرد اختلاف المصير إلى اختلاف الطريق:

قال الله تعالى :﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ (محمد :٣)، فليس التفاوت في المصير أمرًا اعتباطيًّا، وإنما مرده إلى اتباع الباطل أو اتباع الحق .وهذا التعليل هو مفتاح فهم السورة؛ لأن أحكام القتال والابتلاء والطاعة والإنفاق كلها ترجع إلى سؤال واحد :هل اتبع الإنسان الحق الذي جاءه من ربه، أم آثر الباطل عليه؟

سادسًا :المحاور الكبرى والحركة الموضوعية للسورة

تنتظم السورة في محاور متتابعة، يجمعها مقصد بيان حقيقة الاستجابة للوحي وآثارها.

المحور الأول :**التمييز بين طريق الكفر وطريق الإيمان ومآل كل منهما**، في الآيات من الأولى إلى الثالثة .وفيه يقرر الله تعالى اختلاف العاقبة باختلاف المتبوع :الباطل أو الحق، ويجعل الإيمان بما نزل على محمد ﷺ عنصرًا صريحًا في وصف المؤمنين.

المحور الثاني :**أحكام القتال وأسرى الحرب وسنة التدافع والنصرة**، في الآيات من الرابعة إلى الحادية عشرة .وينتقل الخطاب من تقرير المصير إلى بيان مقتضيات المواجهة، فيوضح حكم اللقاء والأسر والفداء، ويربط ذلك بالابتلاء وتمييز المؤمنين، ثم يعرض مصير الكافرين ومصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

المحور الثالث :**المقابلة بين مآل أهل الجنة وأهل النار وحقيقة الاتباع**، في الآيات من الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة .وفيه ينتقل السياق من أحكام المواجهة في الدنيا إلى بيان الجزاء في الآخرة، ويقابل بين حياة المؤمنين في الجنة وحياة الكافرين في النار، ثم يضرب مثل الجنة بما فيها من النعيم الدائم.

المحور الرابع :**كشف أحوال المعرضين والمنافقين أمام الوحي**، في الآيات من السادسة عشرة إلى التاسعة عشرة .وفيه يظهر الفرق بين من ينتفع بالوحي فيزداد هدى، ومن يستمع إليه دون أن يعيه أو يتدبره، ثم يوجه الله نبيه ﷺ إلى الاستغفار والتوحيد.

المحور الخامس :**امتحان صدق الاستجابة عند نزول حكم القتال**، في الآيات من العشرين إلى الثامنة والعشرين .وفيه تنكشف حقيقة المرض في القلوب حين يتحول التكليف إلى عمل، وتظهر عاقبة الذين يكرهون ما أنزل الله ويتبعون ما يسخطه.

المحور السادس :**كشف حقيقة المنافقين وسرائرهم وموقفهم من الوحي والجهاد**، في الآيات من التاسعة والعشرين إلى الثامنة والثلاثين .وفيه يبين الله أن ما تخفيه الصدور سيظهر في المواقف والابتلاءات، ويكشف سنته في تمحيص المؤمنين، ثم يختم بالتحذير من الضعف والبخل والتولي، ويقرر أن الله غني عن خلقه، وأن استبدال المتولين بقوم آخرين لا يضر الله شيئًا.

وهذا التقسيم تقسيم وظيفي يعين على متابعة بناء السورة، وليس فصلًا بين موضوعات مستقلة؛ فالمحاور متداخلة، وكل واحد منها يهيئ لما بعده .ويظل الخيط الجامع بينها هو صدق اتباع الحق حين يقتضي الاتباع اعتقادًا وعملًا وتضحية.

ثامنًا :مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها

المناسبة بينها وبين سورة الأحقاف

تقع سورة محمد بعد سورة الأحقاف، وتظهر بينهما صلة موضوعية قوية في انتقال الخطاب من إقامة الحجة على المكذبين إلى بيان ما يترتب على موقفهم من الحق.

فقد عرضت سورة الأحقاف دلائل التوحيد والرسالة، وناقشت حجج المشركين، وكشفت فساد اتخاذ الأولياء من دون الله، وذكرت موقف الجن حين استمعوا القرآن فآمنوا به، ثم ختمت بتوجيه النبي ﷺ إلى الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

قال الله تعالى في ختام سورة الأحقاف: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأحقاف :٣٥)، ثم تفتتح سورة محمد بقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد :١)، فتأتي بعد تقرير مآل المكذبين لتبين حقيقة هذا المآل وآثاره، وتكشف أن الصد عن سبيل الله ليس مجرد موقف فكري، بل هو انحراف يتصل بالعمل والسلوك والموقف من الرسالة.

وتظهر صلة أخرى بين السورتين في قضية الصبر والثبات؛ فسورة الأحقاف ختمت بالأمر بالصبر في مواجهة المكذبين، وسورة محمد تفصل جانبًا من مقتضيات هذا الثبات حين يدخل المؤمنون ميدان الابتلاء والتكليف، ويصبح الصبر استجابة عملية لا مجرد احتمال للأذى.

ومن المهم ألا تُفهم هذه المناسبة على أنها انتقال من الدعوة السلمية إلى القتال باعتباره بديلًا مطلقًا عن الدعوة؛ فهذا تعميم لا يدل عليه مجرد ترتيب السورتين .وإنما المناسبة الأظهر أن الأحقاف تقيم الحجة وتكشف موقف المعاندين، ثم تبين سورة محمد ما يترتب على الإيمان والصد عنه في ميدان العمل والابتلاء.

المناسبة بينها وبين سورة الفتح

أما صلة سورة محمد بسورة الفتح، فتظهر في الانتقال من تقرير سنن المواجهة والابتلاء إلى بيان آثار النصر والفتح.

فسورة محمد تقرر أن الله ينصر من ينصر دينه، وتكشف أن الإيمان ليس دعوى مجردة، وإنما يقتضي طاعة وثباتًا، وأن مخالفة أمر الله واتباع ما يسخطه سبب للخذلان .ثم تأتي سورة الفتح لتفتتح بإعلان الفتح المبين:

قال الله تعالى :﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح :١)، فيظهر بذلك وجه التكامل بين السورتين :سورة محمد تعرض سنن الاستجابة والابتلاء والنصرة، وسورة الفتح تعرض مظهراً عظيمًا من مظاهر تحقق الوعد الإلهي بالنصر والفتح.

ولا يعني ذلك أن كل ما ورد في سورة محمد يختص بغزوة معينة، أو أن سورة الفتح نتيجة زمنية مباشرة لنزولها؛ فالربط هنا من جهة ترتيب المصحف وتكامل المعنى، لا من جهة إثبات التسلسل التاريخي للنزول.

وهكذا تتوسط سورة محمد بين سورتين :سورة الأحقاف التي تقيم الحجة وتقرر الصبر على الرسالة، وسورة الفتح التي تعرض بشائر النصر وتحقق الوعد .فتؤدي وظيفة مهمة في هذا السياق، وهي بيان أن الانتقال من الإيمان بالرسالة إلى ظهور آثارها في الأمة يمر بالطاعة والابتلاء والثبات.

تاسعًا :المعنى الإجمالي للسورة

تفتتح سورة محمد ببيان اختلاف مآل الفريقين بحسب اختلاف موقفهما من الحق؛ فالذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل الله أعمالهم، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ كفر الله سيئاتهم وأصلح بالهم .ثم يرد هذا الاختلاف إلى أصله :أولئك اتبعوا الباطل، وهؤلاء اتبعوا الحق من ربهم.

ومن هذا الأصل ينتقل السياق إلى أحكام القتال، فيبين للمؤمنين كيفية التعامل مع العدو عند اللقاء، وما يكون بعد الأسر من المنّ أو الفداء، ويقرر أن القتال ليس مجرد مواجهة مادية، بل هو ميدان ابتلاء وتمحيص، تظهر فيه حقيقة الإيمان، ويتميز فيه الصادق من غيره.

ثم يربط السورة بين هذا الابتلاء وبين سنة الله في نصرة المؤمنين، ويعرض مصير الذين كفروا ومصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وينقل النظر إلى الآخرة، حيث يتجلى الفرق بين حياة أهل الجنة وحياة أهل النار، ويضرب مثلًا للجنة بما فيها من أنهار ونعيم لا ينقطع.

وبعد عرض هذا المآل، تكشف السورة عن اختلاف الناس في تلقي الوحي؛ فمنهم من يستمع إليه فيزداد هدى، ومنهم من يستمع إليه دون انتفاع، حتى إذا خرج من مجلس العلم

سأل عما قيل، كأنما لم يكن حاضرًا بقلبه .ثم توجه النبي ﷺ والمؤمنين إلى الاستغفار، وتقرر وحدانية الله.

وتنتقل السورة بعد ذلك إلى امتحان الاستجابة العملية، فتذكر أن بعض الناس كانوا يتمنون نزول سورة تتضمن القتال، فلما نزل الحكم ظهر خوف الذين في قلوبهم مرض .وهنا تكشف الآيات أن المشكلة ليست في غياب البيان، وإنما في ضعف الاستعداد لقبول مقتضياته.

ثم تحذر من الإعراض عن طاعة الله، ومن الإفساد في الأرض وقطع الأرحام، وتبين أن الذين يكرهون ما أنزل الله قد أحبط الله أعمالهم، وأن أعمالهم لا تخفى عليه، وأنه يبتلي عباده حتى يعلم المجاهدين والصابرين منهم.

وتكشف السورة بعد ذلك أن مرض النفاق لا يقف عند الخوف من القتال، بل يمتد إلى كراهية الوحي، والارتداد عن الحق، واتباع ما يسخط الله، وتدبر القرآن يكشف ما تخفيه الصدور .ثم تختم بتوجيه المؤمنين إلى الطاعة والإنفاق، وتحذرهم من البخل والتولي، وتقرر أن الله غني عن العالمين، وأن من يتولَّ يستبدل الله به قومًا غيره ثم لا يكونون أمثالهم.

وبهذا تنتهي السورة إلى القضية التي بدأت بها :حقيقة اتباع الحق .فقد بدأ المطلع بتقسيم الناس إلى متبع للباطل ومتبع للحق، وانتهت الخاتمة بامتحان صدق الاتباع من خلال الطاعة والإنفاق، مع تقرير أن الله لا يحتاج إلى عباده، وإنما هم المحتاجون إلى هدايته ورحمته.

المقصد العام في ضوء وحدة المطلع والخاتمة

إذا نظرنا إلى السورة من أولها إلى آخرها وجدنا أن موضوع القتال، على أهميته، داخل في موضوع أوسع هو حقيقة الاستجابة لله ورسوله.

فالمؤمن في السورة ليس من يكتفي بإظهار الانتساب إلى الإسلام، وإنما من يتبع الحق، ويقبل الوحي، ويستجيب للحكم، ويثبت عند الابتلاء، وينفق مما رزقه الله .وفي المقابل، لا يقتصر وصف المنافق على إظهار الخوف من القتال، بل تتعدد مظاهر مرضه : كراهية الوحي، والإعراض عن التدبر، واتباع ما يسخط الله، والبخل، والتولي.

ومن هنا يظهر أن السورة تبني معيارًا متكاملًا للصدق في الإيمان؛ يبدأ من الاعتقاد بالحق، ويمر بقبول الوحي، ويظهر في الطاعة والعمل، ويستمر عند المشقة والابتلاء.

وهذا البناء يفسر اختيار السورة أن تذكر اسم النبي ﷺ في الآية الثانية، وأن تجعل الإيمان بما نزل عليه وصفًا ظاهرًا للمؤمنين؛ فالإيمان بالرسالة ليس أمرًا زائدًا على أصل الإيمان، بل هو من مقتضيات الإيمان بالحق المنزل من الله.

التناسب بين المباحث العقدية والتشريعية

لا تفصل السورة بين العقيدة والتشريع؛ فالأحكام الواردة في القتال والأسر والفداء ليست منفصلة عن أصل اتباع الحق، بل هي من تطبيقاته في المجتمع المؤمن.

كما أن ذكر الجنة والنار ليس انتقالًا إلى موضوع بعيد عن أحكام القتال، بل هو بيان للمآل الذي تنتظم في ضوئه مواقف الدنيا .فالمؤمن الذي يثبت على الحق لا ينظر إلى التكليف من جهة مشقته العاجلة وحدها، بل ينظر إلى عاقبته وما أعد الله لأهله.

وتتصل بذلك معالجة النفاق؛ لأن السورة لا تكتفي ببيان الحكم، وإنما تكشف أثره في القلوب، وتبين أن الامتحان العملي يظهر ما قد تخفيه العبارات والدعاوى.

التناسب بين البداية والنهاية

تبدأ السورة بقوله تعالى :﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ في شأن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وتقرر في المقابل تكفير السيئات وإصلاح الحال للمؤمنين.

وتنتهي بقول الله تعالى :﴿إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد : ٣٨)، فيتحول الخطاب من بيان مآل الفريقين إلى تحذير المخاطبين من أن يكونوا من أهل التولي بعد أن تبين لهم الحق.

وهذا الختام ليس مجرد وعيد، بل هو إظهار لاستغناء الله عن عباده، وأن الدين لا يتوقف على شخص أو جماعة، وأن فضل الله في الهداية والطاعة لا ينبغي أن يقابل بالبخل والإعراض.

فالمطلع يقرر سنة الجزاء على الموقف من الحق، والخاتمة تحذر من مغبة الإعراض عنه بعد ظهوره.

التفسير التفصيلي للسورة

المقطع الأول :تقرير المصير بحسب حقيقة الإيمان واتباع الحق

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾﴾.

يفتتح الله سبحانه هذه السورة بحكم يفصل بين طريقين ومآلين :طريق الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وطريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ .وليس هذا الافتتاح مجرد تقسيم لأصناف الناس، وإنما هو وضع للميزان الذي ينبغي أن تُفهم في ضوئه موضوعات السورة كلها؛ فما يأتي بعد ذلك من حديث عن القتال والأسر والفداء والنصرة والابتلاء والنفاق والإنفاق، إنما يتصل بحقيقة الموقف من الحق الذي جاء به الرسول ﷺ.

فبدأ سبحانه بقوله :﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ، ولم يقتصر على وصفهم بالكفر، بل ضم إليه الصد عن سبيل الله؛ لأن الكفر قد يكون موقفًا اعتقاديًّا يستقر في صاحبه، أما الصد فيتجاوز صاحبه إلى غيره، فيحول بين الناس وبين الهدى، ويقاوم وصول الحق إليهم، ويمنعهم من اتباعه.

والصد عن سبيل الله أعم من صورة واحدة؛ فيدخل فيه صد الناس عن الإيمان، ومحاربة دعوة الرسول، وصرف الناس عن الوحي، ومقاومة ما جاء به من الحق .وقد اجتمع الوصفان في أول السورة لتصوير موقف مركب :فساد في الاعتقاد، وعدوان في الموقف من دعوة الله.

ثم جاء الجزاء بقوله :﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ .والإضلال في أصل معناه جعل الشيء ضالًّا عن وجهته، ومنه ضلال الطريق إذا لم يهتد سالكه إلى مقصده .وإضافة الإضلال إلى الأعمال تصور مآلها؛ فكأن الأعمال التي كانوا يرجون بها نفعًا أو يبتغون بها غاية قد ضلت عن مقصدها، فلم تبلغ ما أراد أصحابها، ولم تثمر لهم النجاة عند الله.

وقد فسر الطبري ذلك بإبطال أعمالهم وإذهابها، وذكر المفسرون في بيانها ما كان يصدر عن بعض الكفار من أعمال البر التي لا تنفعهم مع الكفر، وما كانوا يبذلونه في مقاومة الإسلام ومحاربة أهله .وهذه المعاني لا يلزم أن تكون متعارضة؛ فالمعنى الجامع أن أعمالهم لا تهديهم إلى الثواب والنجاة، ولا تبلغ بهم الغاية التي يتوهمونها لأنفسهم) .٢(

والتعبير بـ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبلغ من مجرد القول إنها لم تقبل؛ لأنه يصور ضياع العمل من جهة صاحبه، ويكشف أن العمل مهما ظهر في صورة النشاط أو المنفعة لا يحقق غايته إذا قام على أصل فاسد، أو اتجه إلى محاربة الحق.

وليس المراد أن كل عمل يصدر عن غير المؤمن لا يترتب عليه أي أثر دنيوي؛ فقد ينتفع صاحبه أو ينتفع به غيره في الدنيا، وإنما الكلام في مآله عند الله وفي عدم تحوله إلى سبب للنجاة والثواب الأخروي.

ثم يقابل السياق هذا الفريق بفريق آخر، فيقول سبحانه :﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ . وجاء العطف هنا ليكشف أن الإيمان الحق لا ينفصل عن العمل الصالح؛ فليس المقصود مجرد التصديق المجرد عن مقتضياته، بل إيمان تظهر آثاره في الاستقامة والطاعة.

غير أن السياق لم يقف عند قوله :﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، بل أتبع ذلك بقوله : ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ .وهذا التكرار الظاهر في لفظ الإيمان ليس حشواً؛ بل فيه زيادة بيان وتخصيص لما تقتضيه حقيقة الإيمان في هذا المقام.

فالإيمان الأول يتناول أصل الإيمان بالله وما يجب الإيمان به، والعمل الصالح يبين أثره، ثم أفرد الإيمان بما نزل على محمد ﷺ بالذكر؛ لأن السورة تتحدث عن موقف الناس من الرسالة المحمدية، وعن الطاعة التي تقتضيها هذه الرسالة، فلا يكفي أن يدعي الإنسان الإيمان بالله ثم يعرض عن الرسول الذي بعثه الله بالحق.

وفي تخصيص محمد ﷺ بالذكر تشريف له، وإظهار لمكانة الوحي الذي أنزله الله عليه، وإبطال لكل محاولة للفصل بين الإيمان بالله والإيمان برسوله.

وقوله :﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة اعتراضية في ظاهر نظمها، لكنها تؤدي وظيفة تقريرية عظيمة؛ إذ تحسم حقيقة المنزل على محمد ﷺ، فلا مجال لأن يكون ما جاء به رأيًا بشريًّا أو دعوة شخصية أو أمرًا صادرًا عن هوى، بل هو الحق من الله.

وتقديم وصف الحق على بيان أثره يهيئ النفس لقبول الجزاء الذي يأتي بعده؛ فهؤلاء لم يتبعوا أمرًا موهومًا، وإنما آمنوا بما ثبت أنه الحق من ربهم.

ثم قال سبحانه :﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، والتكفير هنا ستر السيئات ومحو آثارها بالمغفرة، وهو جزاء الإيمان والعمل الصالح .ولم يقل :لم تقع منهم سيئات، بل أثبت وقوعها ثم أخبر بتكفيرها؛ وفي ذلك فتح لباب الرجاء، وبيان أن المؤمن ليس معصومًا من الخطأ، وإنما فضل الله عليه أن يغفر له ويتجاوز عن سيئاته.

ثم ختم الآية بقوله :﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

والبال يطلق في العربية على الحال والشأن وما يخطر في النفس ويشغلها، وإصلاحه يتناول إصلاح شأن الإنسان في نفسه ودينه ومعاشه ومآله .وليس المقصود مجرد الراحة النفسية بالمعنى الجزئي، بل صلاح الحال على وجه أوسع، يدخل فيه استقامة الاعتقاد، وطمأنينة القلب بالحق، وحسن التوجه إلى الله، والتوفيق للطاعة، وما يترتب على ذلك من صلاح العاقبة.

ومن لطيف النظم أن الآية جمعت بين أمرين :﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، وهو متعلق بما مضى من الذنوب، و﴿أَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، وهو متعلق بحالهم وما يستقبلونه .فكأن فضل الله شمل ماضي المؤمن ومستقبله :ستر ما سبق، وأصلح ما هو قائم وما يأتي بعده.

وهذه المقابلة تهيئ لما بعدها؛ فالفريق الأول ضاعت أعماله، والفريق الثاني غفر الله سيئاته وأصلح شأنه .ثم تأتي الآية الثالثة لتبين أن هذا التفاوت ليس اعتباطيًّا، وإنما يرجع إلى أصل الاتباع.

قال الله تعالى :﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، أي إن اختلاف المصير ناشئ عن اختلاف الطريق الذي اختاره كل فريق.

واسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعود إلى ما تقدم من اختلاف الجزاء، أي ذلك الإضلال لأعمال الكافرين، وذلك التكفير لسيئات المؤمنين وإصلاح بالهم، سببه أن أولئك اتبعوا الباطل وهؤلاء اتبعوا الحق.

ولم يقل :لأن هؤلاء كفروا وهؤلاء آمنوا فحسب، بل استعمل فعل الاتباع :﴿اتَّبَعُوا﴾، لأن الاتباع يدل على سلوك طريق والسير وراء متبوع، وهو أبلغ في تصوير حقيقة الموقف من الحق والباطل.

فالكفر ليس مجرد لفظ يقال، بل هو انحياز عملي إلى الباطل، كما أن الإيمان ليس مجرد دعوى، بل هو اتباع للحق الذي جاء من الله.

وفي قوله :﴿الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ تكرار للصلة التي وردت في الآية الثانية :﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ .وهذا التكرار يربط وصف الوحي بالحق بوجوب اتباعه؛ فالحق ليس مجرد حقيقة ذهنية يعرفها الإنسان، وإنما هو هداية مصدرها الله، ومقتضاها أن يتبعها الإنسان ويخضع لها.

ثم قال سبحانه :﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾، أي على هذا النحو يبين الله للناس أحوال الفريقين وصفاتهم ومآلاتهم، ويجعلهم أمثالًا تتضح بها سننه في خلقه.

وفي التعبير بـ﴿يَضْرِبُ﴾ إشارة إلى البيان الذي يرسخ في الذهن ويقرب المعنى، وليس المقصود مجرد الإخبار عن مصير جماعة مضت، بل تقديم صورة يتبين بها للناس أن الجزاء مرتبط بأصل الطريق الذي يسلكونه.

وهنا تتجاوز الآيات بيان مصير الكافرين والمؤمنين إلى تقرير قاعدة عامة في الحياة الإيمانية : أن اتباع الحق والباطل ليسا موقفين متساويين في القيمة أو العاقبة، وأن الإنسان مسؤول عن الطريق الذي اختاره، وأن ما ينتهي إليه من صلاح أو فساد مرتبط بحقيقة ما اتبعه.

ويظهر من سياق هذه الآيات أن السورة تريد أن تجعل القارئ ينظر إلى ما سيأتي من أحكام القتال والابتلاء والنفاق والإنفاق من خلال هذا الميزان .فليس المقصود أن ينتصر الإنسان لمجرد انتسابه إلى جماعة المؤمنين، وإنما أن يصدق في اتباع الحق الذي جاء من ربه، وأن يظهر هذا الصدق في أعماله ومواقفه.

ومن ثم فإن الآيات الثلاث ليست مقدمة منفصلة عن بقية السورة، بل هي أصلها الحاكم؛ إذ ستكشف الآيات التالية أن من مقتضيات اتباع الحق الاستجابة لأمر الله، والثبات عند التكليف، وعدم التولي حين تظهر مشقة الطاعة.

الهوامش

)١ (ينظر :القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، تفسير سورة محمد، الآية العشرون؛ ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، تفسير الآية نفسها؛ والطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، موضع تفسير الآية .وقد روعي هنا الاستفادة من المعنى التفسيري دون نسبة ألفاظ حرفية إليهم.

)٢ (ينظر :الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة محمد، الآيتان الأولى والثانية؛ ابن عطية، *المحرر الوجيز*، تفسير سورة محمد؛ ابن عاشور، *التحرير والتنوير*، تفسير سورة محمد، الآيات الأولى.

المراجع :

- الطبري، محمد بن جرير، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة محمد.
- ابن عطية، عبد الحق بن غالب، *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*، تفسير سورة محمد.
- القرطبي، محمد بن أحمد، *الجامع لأحكام القرآن*، تفسير سورة محمد.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، *تفسير القرآن العظيم*، تفسير سورة محمد.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، *التحرير والتنوير*، الجزء السادس والعشرون، تفسير سورة محمد .عرض تفسير ابن عاشور لسورة محمد .

أحكام القتال والأسر، وسنة الابتلاء والنصرة

نطاق المقطع :الآيات من الرابعة إلى الحادية عشرة.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ (محمد :٤-١١).

أولًا :الانتقال من تقرير حقيقة الاتباع إلى مقتضياته العملية

لما قررت الآيات الثلاث الأولى أن اختلاف مصير الناس ناشئ عن اختلاف ما اتبعوه، وأن الذين كفروا اتبعوا الباطل والذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم، انتقل السياق إلى ميدان تظهر فيه حقيقة هذا الاتباع ظهورًا عمليًّا، وهو ميدان المواجهة والقتال.

وهذا الانتقال ليس انقطاعًا عن الموضوع السابق، بل هو تفصيل لما يقتضيه الإيمان بالحق حين يصبح تكليفًا تتعلق به حياة الجماعة المؤمنة وأمنها ووجودها.

فالإيمان الذي وصف الله به المؤمنين في مطلع السورة ليس مجرد معرفة ذهنية بالحق، وإنما هو إيمان يقتضي الاستجابة لأمر الله، والثبات عند التكليف، وتحمل ما يترتب على اتباع الرسالة.

ومن هنا افتتحت الآية الرابعة بقوله سبحانه :﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فجاء الخطاب للمؤمنين مباشرة، بعد أن كان الحديث عنهم بصيغة الغائب في الآيات السابقة .وهذا انتقال من وصف الفريقين إلى توجيه أحدهما، ومن بيان حقيقة الإيمان إلى بيان مقتضى من مقتضياته.

ثانيًا :قوله تعالى :﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾

قال الله تعالى :﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ (محمد :٤)، أي إذا واجهتم الذين يقاتلونكم من أهل الحرب في ميدان القتال، فالحكم في تلك الحال هو قتالهم، والتعبير بضرب الرقاب تصوير لشدة المواجهة في الحرب، وبيان لحقيقتها حين تقع المعركة.

وليس المراد بهذه الآية إباحة الاعتداء على كل من كان غير مسلم، أو استباحة دماء الناس لمجرد اختلاف الدين، فإن الآية واردة في سياق القتال، وقد قيدت ذلك بلقاء أهل الحرب، وجاءت أحكامها في إطار التشريع المنظم للمواجهة العسكرية، لا في سياق التعامل مع عموم الناس.

والدليل على أن المقصود مواجهة المحاربين لا عموم غير المسلمين أن القرآن نفسه يقرر أحكامًا أخرى في التعامل مع غير المحاربين، قال الله تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة :٨).

فالجمع بين الآيتين يبين أن أحكام القتال مرتبطة بسياقها، وأن البر والعدل مع غير المحاربين أصل قرآني ثابت، لا يعارضه حكم المواجهة العسكرية عند تحقق أسبابها الشرعية.

وابتداء الآية بـ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ يربط الحكم بواقعة اللقاء، لا بمجرد وجود المخالف في الدين .كما أن التعبير باللقاء في هذا السياق يراد به المواجهة في ميدان الحرب، وليس مطلق الاجتماع أو المصادفة.

وأما قوله :﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ فقد جاء مصدرًا نائبًا عن الأمر، وتقديره :فاضربوا الرقاب . وفي هذا الأسلوب إيجاز وقوة في تصوير الفعل المطلوب في حال القتال، دون أن يكون المقصود إنشاء إذن مطلق بالعنف خارج شروط الحرب وأحكامها.

ثم لا يترك السياق الحديث عن القتال مفتوحًا دون ضبط مرحلته التالية، بل ينتقل مباشرة إلى قوله:

ثالثًا :معنى الإثخان والانتقال إلى الأسر

قال الله تعالى :﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ (محمد :٤)، أي استمر القتال حتى يتحقق الإثخان، فإذا غلبتموهم وتمكنت الجماعة المقاتلة من السيطرة على الموقف، وصار من بقي منهم في أيديكم أسرى، فانتقلوا إلى إحكام الأسر وضبطه.

والإثخان في أصل اللغة يدل على الإغلاظ والتثقيل، ومنه قولهم :أثخنه المرض إذا أضعفه، وأثخنه الجرح إذا أثقل عليه وأوهنه .ويأتي في سياق الحرب بمعنى إضعاف العدو وقهره حتى تزول قدرته على مواصلة القتال.

وليس الإثخان مرادفًا لمجرد كثرة القتل؛ إذ المقصود تحقيق الغلبة وكسر شوكة القوة المحاربة، وهو المعنى الذي يظهر من اقترانه بالأمر التالي :﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾.

فالسياق يرسم انتقالًا بين حالين مختلفتين :حال المواجهة العسكرية، وحال السيطرة على الأسرى .ولكل حال حكمها ووظيفتها.

وقوله :﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أي أحكموا أسرهم، والوثاق ما يوثق به الأسير ويمنع من فراره أو اعتدائه .وليس المقصود التشديد لمجرد الإيلام، بل تحقيق الضبط والأمن ومنع العودة إلى القتال أو إلحاق الضرر بالآخرين، والإثخان الغلبة والقهر، وشد الوثاق بإحكام أسر من صار في أيدي المسلمين .وهو تفسير يتفق مع تعاقب الأفعال في الآية، ومع الانتقال من القتال إلى الأسر .(٣)

ومن دقائق النظم أن القرآن لم ينتقل من ذكر القتال مباشرة إلى ذكر المن والفداء، بل توسط الأمر بشد الوثاق؛ لأن إطلاق الحكم في شأن الأسير قبل ضبط حاله لا يحقق المقصود من التشريع .فالأسر مرحلة مستقلة لها مقتضياتها، ثم يأتي النظر في مصير الأسير بعد ذلك.

وهذا الترتيب يكشف عن أن الخطاب لا يعالج الحرب باعتبارها اندفاعًا غير منضبط، بل يميز بين المواجهة والأسر والتصرف في الأسرى، ويجعل لكل مرحلة حكمًا.

رابعًا :المن والفداء ومقصد التعامل مع الأسرى

قال الله تعالى :﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ (محمد :٤)، أي بعد وقوع الأسر واستقرار أمر الأسير، يكون من وجوه التصرف فيه المن عليه بإطلاقه من غير مقابل، أو فداؤه بعوض يحقق المصلحة المشروعة.

والمن في اللغة الإحسان الذي يمن به الإنسان على غيره، والمراد هنا إطلاق الأسير من غير مقابل .والفداء ما يجعل عوضًا عن إطلاقه، وقد يكون مالًا، أو مبادلة بأسير مسلم، أو صورة أخرى مشروعة من صور الفداء.

وقدم المن على الفداء، فقال :﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾، وليس في هذا التقديم وحده دليل قطعي على أن المن أفضل في كل حالة؛ لأن الترتيب قد يراعي البيان أو التنويع أو طبيعة السياق .لكن ذكر المن أولًا يبرز أن التشريع لم يجعل مصير الأسير محصورًا في القتل، ولم يجعل الانتقام غاية التعامل معه، بل أثبت إطلاقه بلا عوض وجهًا من وجوه التصرف.

وهنا ينبغي الوقوف عند المسألة الفقهية المهمة :هل حصر القرآن مصير الأسير في المن والفداء، أم توجد أحكام أخرى ثبتت بالسنة والعمل النبوي؟

ذهب طائفة من أهل العلم إلى أن الآية محكمة، وأن المن والفداء أصلان ثابتان في أحكام الأسرى، بينما ذهب آخرون إلى أن القتل يدخل في خيارات الإمام عند وجود موجب معتبر، استنادًا إلى مجموع النصوص والسيرة النبوية.

وقد نقل الطبري الخلاف في المسألة، وذكر قول من قال بالنسخ، وقول من قال بالإحكام، ثم اختار أن الآية محكمة غير منسوخة، وقرر أن المن والفداء ثابتان، وأن ورود الإذن بالقتل في نصوص أخرى لا يلزم منه إبطال حكم الآية(٤)

والذي ينبغي تحريره أن دعوى النسخ تحتاج إلى دليل يثبت التعارض الذي لا يمكن الجمع معه، ولا يكفي مجرد ورود حكم آخر في واقعة أو سياق مختلف لإبطال حكم الآية.

كما أن أفعال النبي ﷺ في الأسرى تنوعت؛ فثبت المن على ثمامة بن أثال، وثبت الفداء في أسرى بدر، وثبت قتل بعض الأسرى في وقائع مخصوصة .وهذه الوقائع تحتاج إلى جمع

فقهي يراعي اختلاف الأحوال والجرائم والعهود والمصالح، ولا يصح اختزالها في حكم واحد دون تحرير.

ومن هنا فالمسألة ليست إطلاقًا للأفراد في التصرف بالأسرى، ولا إذنًا لكل أحد في القتل أو الإطلاق أو المبادلة؛ وإنما هي من أحكام السياسة الشرعية التي تتولاها السلطة المختصة وفق أحكام الشريعة، ومراعاة العهود والمصالح والضوابط الشرعية.

وهذا قيد مهم في تنزيل الآية؛ إذ لا يجوز تحويل خطاب القتال الوارد في سياق التشريع العام إلى تصرفات فردية أو اعتداءات خارج سلطة القضاء والولاية الشرعية.

خامسًا :معنى قوله تعالى :﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾

قال الله تعالى :﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد :٤)، أي يستمر هذا الحكم في سياق الحرب حتى تنتهي المواجهة وتضع الحرب أثقالها وأدواتها، وينقضي موجب القتال.

والأوزار جمع وِزْر، ويأتي بمعنى الحمل الثقيل، ومنه الوزر بمعنى الإثم لما يحمله صاحبه من تبعة .والمقصود هنا أثقال الحرب وآلاتها وما يصاحبها من أعباء المواجهة.

وقد تعددت عبارات المفسرين في المراد بوضع الحرب أوزارها؛ فقيل :حتى ينتهي القتال، وقيل :حتى يضع المحاربون أسلحتهم، وقيل :حتى يزول الشرك ويظهر الإسلام .ونقل الطبري عن مجاهد وقتادة أقوالًا تتصل بانتهاء الشرك وظهور الإسلام، كما نقل أقوالًا تتعلق بانتهاء القتال(٥).

والذي يظهر أن المعنى المباشر هو انتهاء الحرب وارتفاع أسبابها، لأن السياق يتحدث عن أحكام اللقاء والأسر والفداء .أما الأقوال التي تربط ذلك بغاية تاريخية كبرى، فهي معانٍ تتصل بمآلات الصراع وامتداد سننه، ولا يلزم جعلها بديلًا عن الدلالة السياقية المباشرة.

ولا يعني ذلك أن القتال يظل حكمًا مستمرًا في كل زمان حتى يختفي كل خلاف ديني من العالم؛ فهذا تحميل للآية ما لا يقتضيه سياقها، ومصادمة للنصوص التي تثبت أحكام العهود والصلح والبر والقسط.

فالمعنى أن أحكام المواجهة في هذا السياق مرتبطة بقيام الحرب، وأن انتهاء الحرب يقتضي انتهاء الحالة الاستثنائية التي كانت تستدعي أحكامها.

ثم ينتقل السياق من بيان الحكم إلى كشف الحكمة من وجود هذا الابتلاء أصلًا.

سادسًا :حكمة التدافع والابتلاء

قال الله تعالى :﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ (محمد :٤)، أي إن ما تقدم من أحكام القتال والأسر جزء من تدبير الله تعالى، ولو شاء سبحانه لأهلك أعداء المؤمنين دون أن يكلف المؤمنين بمواجهتهم، ولكنه جعل بعض الناس سببًا لابتلاء بعض، لتظهر حقائق الإيمان والاستجابة والصبر.

وقوله :﴿وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ يقرر كمال قدرة الله، وأن نصره ليس متوقفًا على قوة بشرية أو وسيلة مادية .فالله قادر على أن ينتصر من الكافرين دون قتال المؤمنين، لكنه سبحانه أراد أن تجري سننه في عباده من خلال الابتلاء والعمل والتكليف.

وفي قوله :﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ إظهار لحكمة الابتلاء، فالمؤمنون يبتلون بمواجهة العدو وما يتطلبه ذلك من صبر وثبات وبذل، وأهل الباطل يبتلون بما يقع عليهم من آثار مواقفهم وأعمالهم، وتظهر في هذه المواجهة حقيقة الناس.

ولا يعني الابتلاء أن الله تعالى يكتسب علمًا لم يكن حاصلًا له، تعالى الله عن ذلك؛ وإنما المراد ظهور ما علمه سبحانه في الواقع، ووقوع ما تترتب عليه المحاسبة والجزاء، وتمييز الصادق من غيره بحسب ما يظهر من عمله.

وهذا المعنى يتصل مباشرة بما سبق في مطلع السورة؛ فقد قررت الآيات أن المؤمنين اتبعوا الحق، والآن يأتي الابتلاء ليظهر صدق هذا الاتباع في واقع العمل.

فليست حقيقة الإيمان في هذه السورة مجرد الانتساب إلى جماعة المؤمنين، وإنما الاستجابة التي تظهر عند التكليف، والثبات الذي يظهر حين تتعرض النفس للمشقة.

ثم يخص الله تعالى الشهداء بالذكر، فيربط بين ميدان القتال ومآل العمل عنده.

سابعًا :مصير المجاهدين وعدم إضاعة أعمالهم

قال الله تعالى :﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد :٤)، أي إن الذين قتلوا في سبيل الله لا يضيع الله أعمالهم، ولا يجعل جهادهم وتضحياتهم باطلة، بل يتقبلها ويجزيهم عليها، ويجعل ما قدموه سببًا للفوز والكرامة.

وفي التعبير بقوله :﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ مناسبة ظاهرة لقوله في مطلع السورة :﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، فقد بدأ السياق بإضلال أعمال الكافرين، ثم ختم الآية نفسها بنفي إضلال أعمال الذين قتلوا في سبيل الله .وهذه مقابلة مقصودة في بناء المعنى :أعمال أولئك ضلت عن غايتها، وأعمال هؤلاء محفوظة عند الله، لا يذهب أجرها.

وهذا الربط من أهم الروابط الداخلية في السورة؛ لأنه يجعل آية الجهاد امتدادًا مباشرًا للمقدمة التي قررت اختلاف المصير باختلاف طريق الاتباع.

وقد ورد في قراءة الآية اختلاف في الأداء، فقراءة حفص عن عاصم، وهي المعتمدة في المصحف الذي نعتمده، هي :﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بالبناء للمجهول، أي الذين استشهدوا في سبيل الله.

ووردت قراءة ﴿قَاتَلُوا﴾ بالألف، وهي قراءة منقولة عن جماعة من القراء، وتدل على الذين قاتلوا في سبيل الله، سواء انتهى جهادهم إلى الشهادة أم لم ينته إليها.

والقراءتان تتكاملان في أصل المعنى؛ لأن الذين قاتلوا في سبيل الله يشمل وصفهم الجهاد، والذين قتلوا منهم في سبيله يخصون بفضل الشهادة .وقد ذكر الطبري اختلاف القراء في هذا الموضع، ورجح قراءة ﴿قَاتَلُوا﴾ بحسب اختياره في تفسيره، مع بيان وجوه القراءات الأخرى(٦).

لكن لا ينبغي الخلط بين اختياره التفسيري وبين القراءة التي أثبتها المصحف المتداول برواية حفص؛ فلكل منهما موضعه في البحث، والقراءة القرآنية لا تُرد لمجرد اختلاف اختيار مفسر في توجيه المعنى.

وفي الآية كذلك بيان أن قيمة العمل ليست بمقدار ما يظهر منه في الدنيا، وإنما بما كان عليه من الإخلاص واتباع الحق وموافقة أمر الله .فالمؤمن الذي بذل نفسه في سبيل الله قد يبدو في ميزان الدنيا أنه فقد حياته، لكن القرآن ينقل النظر إلى الميزان الأخروي، حيث لا تضيع تضحيته، ولا يذهب أثرها.

وهذا المعنى يتسع لكل عمل صالح داخل في سبيل الله، مع مراعاة أن وصف الشهادة والجهاد له ضوابطه الشرعية، فلا يجوز أن يطلق على كل قتل أو مواجهة وصف القتل في سبيل الله دون تحقق شروطه.

ثامنًا :الهداية وإصلاح البال وإدخال الجنة

قال الله تعالى :﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (محمد :٥)، أي سيهديهم إلى ما فيه كرامتهم ورضوان الله، ويصلح شأنهم وحالهم، ويجعل عاقبتهم خيرًا.

وهذه الآية متصلة اتصالًا وثيقًا بما قبلها؛ فقد نفى الله إضلال أعمالهم، ثم أثبت لهم الهداية وإصلاح البال .فليس الجزاء مجرد حفظ الأجر، وإنما يتبعه توجيه إلى الخير وإصلاح شامل للحال.

والسين في قوله :﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ تفيد الاستقبال، وفيها إشعار بتتابع آثار الجزاء، فكأن الآية تنقل المؤمن من لحظة البذل والتضحية إلى ما أعده الله له من الهداية والكرامة.

وقد تقدم في الآية الثانية قوله تعالى :﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، ثم جاء هنا :﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ . وهذا التكرار ليس مجرد إعادة لفظية، بل هو ربط بين حال المؤمنين عامة، وبين حال الذين قاتلوا في سبيل الله على وجه الخصوص.

فالإصلاح الأول جاء في سياق جزاء المؤمنين الذين اتبعوا الحق، والإصلاح الثاني جاء في سياق جزاء المجاهدين الذين بذلوا أنفسهم في سبيله .وكأن السورة تؤكد أن إصلاح الحال ثمرة ملازمة للإيمان الصادق، وأنه يتجدد في مراتب العمل والتضحية.

ثم قال الله سبحانه:﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (محمد :٦)، أي يدخلهم الجنة التي عرفهم بها، وأطلعهم على ما فيها من النعيم والكرامة، أو عرفهم منازلهم فيها وهداهم إليها.

وقد ذكر المفسرون في قوله :﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ وجوهًا، منها أن الله وصف لهم الجنة في الدنيا حتى عرفوا نعيمها، ومنها أنه يعرفهم منازلهم فيها، ومنها ما يتصل بمعرفتهم منازلهم ومواضعهم عند دخولها.

وهذه المعاني لا يلزم أن تكون متناقضة؛ فتعريف الجنة للمؤمنين في الدنيا بالوحي، ثم هدايتهم إلى منازلهم فيها في الآخرة، كلاهما من وجوه الإكرام.

والذي يقويه سياق الآيات أن المراد تعريفهم الجنة وتعريفهم ما أعد الله لهم فيها، مع إمكان دخول معرفة المنازل في ذلك؛ لأن السياق يتحدث عن جزاء الشهداء وما يتبع حفظ أعمالهم من الهداية والإصلاح ثم دخول الجنة.

ولم يقل سبحانه :يدخلهم الجنة فحسب، بل قال :﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، وفي ذلك زيادة في معنى الإكرام؛ فليس دخول الجنة انتقالًا إلى مكان مجهول، بل إلى دار يعرف المؤمنون نعيمها ويجدون فيها ما وعدهم الله به.

وقد ورد في السنة الصحيحة ما يدل على فضل الشهداء وكرامتهم عند الله، ومن ذلك حديث مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى :﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾، وفيه أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة .رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، برقم)١٨٨٧ (وفق ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

وإنما يذكر هذا الحديث هنا استئناسًا بما قررته الآيات من كرامة الشهداء، لا على أنه تفسير مباشر وحيد لقوله :﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

تاسعًا :من جزاء المجاهدين إلى خطاب الأمة :شرط النصرة والثبات

قال الله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد :٧)، أي إن تنصروا دين الله ورسوله، وتقوموا بما أمركم الله به، وتثبتوا على الحق، ينصركم الله على أعدائكم ويثبتكم في مواطن المواجهة.

والآية من أعظم الآيات التي تقرر العلاقة بين نصرة الدين ونصرة الله لعباده؛ فالله سبحانه غني عن العالمين، ولا يحتاج إلى من ينصره، وإنما المقصود بنصرة الله نصرة دينه، والقيام بأمره، وتأييد رسوله، والتمسك بما أنزل من الحق.

وفي إضافة النصرة إلى الله تشريف عظيم لهذا العمل؛ لأن المؤمن حين ينصر دين الله يكون قائمًا بأمر الله، عاملًا بما يحبه ويرضاه.

ولم يقل :إن تقاتلوا ينصركم، وإنما قال :﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾، لأن النصرة أوسع من مجرد القتال، فهي تشمل إقامة الدين، والدعوة إليه، والثبات عليه، والقيام بما يقتضيه من العدل والطاعة والإصلاح.

لكن لا يجوز توسيع معنى النصرة حتى يفقد ضوابطه الشرعية؛ فليست كل دعوى لنصرة الدين نصرة حقيقية له، وإنما المعتبر ما وافق أمر الله ورسوله، وقام على الحق والعدل.

ثم جاء جواب الشرط :﴿يَنْصُرْكُمْ﴾، وبعده :﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ .والتثبيت هنا يشمل الثبات الحسي في مواطن القتال، والثبات المعنوي على الحق والطاعة، وعدم الاضطراب عند الشدائد.

ومن لطيف التعبير أن الله خص الأقدام بالذكر؛ لأن ثبات القدم علامة على ثبات صاحبها، وعدم تراجعه عند المواجهة .فالقدم هي موضع الحركة في الأرض، وثباتها يصور تمكن المؤمن من موقفه وعدم انخذاله.

والآية متصلة بما سبقها؛ فبعد أن أخبر الله عن جزاء الذين قاتلوا في سبيله، وجه الخطاب إلى المؤمنين جميعًا، ليقرر أن النصرة ليست أمرًا خاصًّا بمن سبق إلى الشهادة، وإنما هي سنة تتعلق بقيام الجماعة المؤمنة بمقتضيات الدين.

كما أن الآية ليست وعدًا آليًّا بتحقق كل نصر عاجل بمجرد رفع شعار ديني؛ بل الوعد مرتبط بتحقق شرطه :نصرة الله، والثبات على أمره، والقيام بما يقتضيه الإيمان .وقد تتأخر بعض صور النصر لحكمة الابتلاء، أو يأتي النصر في صورة لا يختارها الإنسان لنفسه.

عاشرًا :المقابلة بين المؤمنين والكافرين في الجزاء

قال الله تعالى :﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد :٨)، أي هلاكًا وخيبة وسوء عاقبة لهم، وأبطل الله أعمالهم التي لا تقودهم إلى رضوانه ولا تنجيهم من عذابه.

والتعس في اللغة يدل على الانكباب والسقوط، ويستعمل في الدعاء بالهلاك والخيبة .وقوله : ﴿فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ دعاء عليهم بسوء العاقبة، وهو في هذا المقام إعلان لما استحقوه من الخسران بسبب كفرهم وإعراضهم.

واللافت أن الآية لم تكتف بذكر التعس، بل أعادت قوله :﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، وهو التعبير الذي افتتحت به السورة في الآية الأولى.

وهذا التكرار يعيد القارئ إلى أصل السورة، ويؤكد أن ما يقع في ميدان القتال من انتصار أو هزيمة لا ينفصل عن الميزان الأكبر الذي قررته الآيات الأولى :اتباع الحق أو اتباع الباطل.

ثم يبين الله سبحانه علة هذا المصير: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد :٩)، أي ذلك التعس وإضلال الأعمال بسبب كراهيتهم لما أنزل الله من الوحي والهدى والأحكام.

والتعبير بالكراهية هنا أبلغ من مجرد عدم الاستجابة؛ لأن الكراهية موقف باطني يتجاوز الضعف أو العجز إلى النفور من الحق وعدم الرضا به.

وقد يكون الإنسان عاجزًا عن أداء بعض التكاليف مع إيمانه بها وتعظيمه لها، وهذا لا يساوي كراهية ما أنزل الله .أما الآية فتتحدث عن قوم لم تكن مشكلتهم مجرد العجز عن الفعل، بل كرهوا الوحي نفسه وما يقتضيه من هداية وتشريع.

وهذا الفرق مهم في فهم الآية؛ فلا يجوز أن يجعل كل تقصير في الطاعة أو كل ضعف بشري دليلًا على كراهية حكم الله، كما لا يجوز التسوية بين المعصية الناشئة عن ضعف النفس وبين الجحود أو الاعتراض على الوحي.

وفي قوله :﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ تعليل للمآل؛ فالكراهية التي استقرت في موقفهم من الوحي أفسدت أصل العمل، وأبطلت ما كانوا يرجونه من نتائجه الأخروية.

وتظهر هنا مقابلة دقيقة بين الآيتين الثانية والتاسعة :فالمؤمنون آمنوا بما نزل على محمد ﷺ، وكان جزاؤهم تكفير السيئات وإصلاح البال، وأما هؤلاء فكرهوا ما أنزل الله، فكان جزاؤهم إحباط الأعمال.

فليس الاختلاف بين الفريقين اختلافًا في المواقف الظاهرة وحدها، وإنما في حقيقة العلاقة بالوحي :إيمان وقبول واتباع، أو كراهية وإعراض ورفض.

وهذه المقابلة تكشف أحد مقاصد السورة في معالجة النفاق؛ إذ قد يظهر الإنسان بمظهر المنتسب إلى الجماعة المؤمنة، لكن موقفه من الوحي عند التكليف يكشف حقيقة ما في قلبه.

الحادي عشر :الاعتبار بمصائر الأمم السابقة

قال الله تعالى :﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ (محمد :١٠)، أي أفلم يسير هؤلاء المكذبون في الأرض فينظروا إلى آثار الأمم السابقة التي كذبت رسلها، وكيف انتهى بها الأمر إلى الهلاك والتدمير؟

والاستفهام هنا إنكاري توبيخي، لا يطلب مجرد معرفة تاريخية، وإنما يلوم من لم يعتبر بما يشاهده من آثار الأمم الهالكة.

وقوله :﴿فَيَنْظُرُوا﴾ لا يراد به مجرد الإبصار، بل النظر الذي يفضي إلى الاعتبار واستخلاص العبرة .فقد يرى الإنسان آثار الهالكين ولا يتعظ، وقد ينظر إليها فيعتبر بأن ما وقع بهم كان نتيجة التكذيب والإعراض عن أمر الله.

ثم قال :﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، والتدمير أشد من مجرد الإهلاك؛ إذ يدل على الاستئصال والإفساد الشامل لما كانوا عليه.

ولم ينسب الله الهلاك إلى مجرد تقلبات التاريخ أو تغير أحوال الأمم، بل أسنده إلى نفسه سبحانه؛ ليقرر أن ما يقع من العقوبات ليس خارجًا عن قدرته وحكمه وعدله.

ثم قال :﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾، أي وللكافرين الذين يصرون على الكفر والتكذيب نصيب من أمثال تلك العواقب إن استمروا على أسبابها ولم يرجعوا إلى الحق.

وفي التعبير إشارة إلى أن سنن الله لا تتبدل لمجرد اختلاف الأزمنة والأمكنة؛ فمن سلك طريق الأمم المكذبة، وأصر على أسباب هلاكها، كان معرضًا لما تعرضت له من العقوبة.

ولا يعني ذلك أن كل هزيمة أو مصيبة دنيوية دليل قطعي على أن أصحابها كافرون أو مستحقون للعذاب؛ فالابتلاء قد يقع بالمؤمن والكافر، وقد يبتلي الله عباده بالضراء والسراء، ولا يصح الحكم على الأشخاص أو الجماعات بمجرد ما يقع لهم من أحداث.

وإنما المقصود أن العناد والإعراض عن الوحي لهما عواقب، وأن التاريخ في المنظور القرآني ليس حوادث منفصلة عن سنن الله في الهداية والضلال والجزاء.

الثاني عشر :ولاية الله للمؤمنين وخذلان الكافرين

قال الله تعالى :﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ (محمد :١١)، أي ذلك النصر للمؤمنين، وتلك العاقبة الحسنة لهم، وتلك العقوبة التي تحل بالكافرين، بسبب أن الله ولي المؤمنين وناصرهم ومتولي أمرهم، وأن الكافرين لا ولي لهم ينصرهم من دون الله أو يمنع عنهم حكمه.

والمولى من الألفاظ التي تتعدد معانيها بحسب السياق، ومن معانيه الولي والناصر والمتولي للأمر .والمعنى هنا ظاهر في ولاية الله للمؤمنين ونصرته لهم، في مقابل انقطاع النصرة الحقيقية عن الكافرين.

ولم يقل :إن المؤمنين أقوى من الكافرين في كل حال، بل قال :﴿اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فربط النصر بالولاية الإلهية، لا بمجرد القوة المادية.

وهذا لا ينفي أن النصر في الدنيا قد يتأخر، أو أن المؤمنين قد يصابون بالجراح والهزيمة في بعض الوقائع، كما وقع في أُحد؛ لأن الولاية الإلهية لا تعني انتفاء الابتلاء، بل قد تكون المصيبة نفسها ميدانًا لظهور آثار الإيمان والصبر والرجوع إلى الله.

وقد دل القرآن على أن ولاية الله للمؤمنين ولاية هداية وتوفيق ونصرة ورعاية، قال سبحانه: قال الله تعالى :﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة :٢٥٧).

فولاية الله ليست محصورة في النصر العسكري، وإنما تشمل الهداية والتثبيت والحفظ والتوفيق في الدنيا والنجاة في الآخرة.

وفي المقابل، فإن قوله :﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ لا يعني أنهم لا يملكون أعوانًا أو أنصارًا في الدنيا، وإنما المراد أنهم لا يملكون وليًّا حقيقيًّا ينجيهم من حكم الله أو يمنحهم النجاة الأخروية.

وقد يكون للكافرين أعوان وقوى وأموال، لكنها لا تملك أن تحول دون قضاء الله أو تمنحهم النجاة عنده.

وبهذا تختم الآية المقطع بإرجاع النصر والخذلان إلى أصلهما الأعلى :ولاية الله لعباده المؤمنين، وانقطاع الولاية النافعة عن الذين كفروا.

وهكذا يتبين أن الآيات من الرابعة إلى الحادية عشرة لم تقتصر على تقرير أحكام القتال، بل ربطت هذه الأحكام بحقيقة الابتلاء، ثم بكرامة المجاهدين، ثم بسنن النصر والهداية، ثم بمصير الكافرين، حتى انتهت إلى تقرير أن النصرة الحقيقية إنما تكون بولاية الله.

الثالث عشر :المسائل التفسيرية والفقهية المستفادة من المقطع

مسألة النسخ في قوله تعالى :﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾

هذه من أبرز المسائل التي وقع فيها الخلاف التفسيري في المقطع.

ذهب بعض السلف إلى أن حكم المن والفداء منسوخ بآيات أخرى، منها قوله تعالى في سورة التوبة:

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (التوبة :٥).

واستند هذا الاتجاه إلى أن أحكام القتال المتأخرة غيّرت الحكم السابق في أسر المشركين والتصرف فيهم.

لكن الطبري نقل هذا القول، ونقل في مقابله قول من يرى إحكام الآية، ثم اختار عدم نسخها، وذكر أن النبي ﷺ تصرف في الأسرى بصور مختلفة، فقتل بعضهم، وفادى بعضهم، ومنّ على بعضهم .(٧)

والذي يظهر أن القول بالإحكام أقوى من جهة عدم ثبوت التعارض الذي يستلزم النسخ؛ إذ لا يلزم من ورود حكم القتل في بعض الأحوال إلغاء حكم المن والفداء في أحوال أخرى.

كما أن آية التوبة تتناول سياقًا مخصوصًا في التعامل مع المشركين بعد انقضاء العهود المعتبرة، ولا يصح أن تُجعل وحدها ناسخة لجميع أحكام الأسرى الواردة في سورة محمد دون تحرير محل التعارض.

ويضاف إلى ذلك أن المن والفداء ثابتان في السنة النبوية، وأن اختلاف التصرف في الأسرى يدل على مراعاة اختلاف أحوالهم والمصلحة الشرعية المتعلقة بهم.

وعليه، فالراجح بقاء أصل حكم المن والفداء، مع مراعاة ما ثبت في السنة من أحكام أخرى، وما تقتضيه السياسة الشرعية والعهود والمواثيق، ولا يصح إطلاق حكم واحد على جميع الوقائع والأسرى.

مسألة سلطة التصرف في الأسرى

تدل الآية على أن أحكام الأسرى مرتبطة بولاية شرعية تتولى النظر في شؤون الحرب والأسر، وليست حقًّا للأفراد.

فالانتقال من القتال إلى الأسر، ثم النظر في المن والفداء، يقتضي وجود جهة مسؤولة تقدر الأحوال وتراعي المصالح وتلتزم أحكام الشريعة.

ولا يجوز الاستناد إلى الآية لتبرير الاعتداء على الأسرى أو قتلهم خارج الأحكام الشرعية، كما لا يجوز تحويلها إلى مسوغ لأعمال جماعات أو أفراد يتصرفون في حياة الناس وأمنهم بغير ولاية معتبرة.

وهذا من أهم ضوابط تنزيل الآية في الواقع؛ إذ لا بد من التفريق بين النص التشريعي الذي ينظم علاقة الجماعة المؤمنة بخصمها المحارب، وبين التصرفات الفردية التي قد تنتسب إلى الدين وهي مخالفة لأحكامه.

مسألة علاقة الجهاد بالابتلاء

تقرر الآية أن الله جعل بعض عباده ابتلاء لبعض، وأن ما يقع في ميدان المواجهة ليس خارجًا عن حكمته وتدبيره.

والجهاد في سبيل الله عبادة لها شروطها وأحكامها، ولا يكفي فيها مجرد ادعاء النية أو رفع الشعارات .بل لا بد من مشروعية المقصد والوسيلة، وموافقة الأحكام الشرعية، وعدم الاعتداء.

كما أن الابتلاء لا يقتصر على المجاهدين؛ فالمجتمع كله يبتلى بمواقفه من الحق، وبمدى قيامه بالواجب، وبقدرته على الثبات عند الشدائد.

مسألة حقيقة النصر

لا تساوي السورة بين النصر وبين مجرد الغلبة المادية العاجلة؛ فالنصر في قوله تعالى :﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ مرتبط بنصرة الدين والثبات على الحق.

وقد يبتلى المؤمنون بالخسارة العسكرية أو الجراح، ولا يكون ذلك دليلًا على انتفاء ولاية الله عنهم، كما أن الغلبة الدنيوية لا تكون وحدها دليلًا على صحة الموقف العقدي والأخلاقي لمن غلب.

والمعيار القرآني أوسع من النتيجة العسكرية؛ فهو يشمل صدق الإيمان، وصلاح العمل، والقيام بالحق، وحسن العاقبة.

الرابع عشر :تكامل المقطع في بناء السورة

يظهر من مجموع الآيات أن هذا المقطع يؤدي ثلاث وظائف مترابطة.

أولها :نقل الإيمان من مستوى الاعتقاد إلى مستوى التكليف والعمل، وذلك ببيان أحكام القتال والأسر.

وثانيها :ربط العمل بمآله الأخروي، من خلال بيان أن أعمال الذين قتلوا في سبيل الله لا تضيع، وأن الله يهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة.

وثالثها :إقامة سنة عامة في النصر والخذلان، تربط نصرة الله بنصرة دينه، وتربط خذلان الكافرين بكراهيتهم للوحي وإعراضهم عن الحق.

ومن هنا فإن المقطع لا ينتهي عند أحكام القتال، بل ينتهي إلى بيان أصل عقدي جامع : ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا الختام يمهد للانتقال إلى الآيات التالية، التي تعرض صورة أخرى من صور المقابلة بين المؤمنين والكافرين، وهي المقابلة بين جزائهم في الآخرة.

فبعد الحديث عن أحكام الحرب في الدنيا، ينتقل السياق إلى مشهد الجزاء في الآخرة، وكأن السورة تريد أن توسع أفق النظر من ميدان المواجهة العاجلة إلى المآل النهائي الذي تنتهي إليه طريقا الإيمان والكفر.

الهوامش

٣/ الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة محمد، الآية الرابعة .وينظر أيضًا :ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، تفسير الآية نفسها .

٤/الطبري، تفسير سورة محمد، الآية الرابعة، ولا سيما عرضه للخلاف في النسخ والإحكام وترجيحه عدم النسخ .

٥ /المرجع السابق، تفسير قوله تعالى :﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ .

٦ /المرجع السابق، تفسير قوله تعالى :﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وبيان اختلاف القراءات وتوجيهها .

٧ /الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة محمد، الآية الرابعة .

المقطع الثالث :المقابلة بين مصير المؤمنين والكافرين، وتصوير النعيم الأخروي في مشهد الجنة والنار

قال الله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

يقول الله تعالى :﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾)سورة محمد :١٢(، يقرر سبحانه في هذه الآية المآل الذي تنتهي إليه حياة المؤمنين، بعد أن عرضت الآيات السابقة حقيقة الصراع بين الإيمان والكفر، وما يترتب على الموقف من الحق من جزاء في الدنيا والآخرة .فليس الإيمان في ميزان القرآن مجرد انتماء أو دعوى، وإنما قرنه الله بالعمل الصالح؛ لأن حقيقة الإيمان تظهر في أثره على الاعتقاد والسلوك والعمل.

افتتحت الآية بحرف التوكيد »إنّ«، وجاء الفعل ﴿يُدْخِلُ﴾ مسندًا إلى اسم الجلالة، ليكون إسناد الجزاء إلى الله تعالى نفسه، وفي ذلك تقرير أن دخول الجنة فضل من الله وحكم منه، لا نتيجة مستقلة عن رحمته وإحسانه .واختيار فعل الإدخال يصور تحقق الانتقال إلى دار الكرامة، وأن الجنة ليست مجرد أمنية أو معنى معنويًا، بل دار حقيقية أعدها الله لعباده المؤمنين.

وجمع سبحانه بين الإيمان والعمل الصالح، فالإيمان أصل الاستحقاق من جهة الوعد الإلهي، والعمل الصالح ثمرة هذا الإيمان ودليله العملي .وليس في ذلك استقلال للعمل عن فضل الله، فإن العبد لا يدخل الجنة إلا برحمة الله، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال» :لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة«، قالوا :ولا أنت يا رسول الله؟ قال» :ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة»؛ وهو حديث في بيان افتقار العبد

إلى رحمة ربه، لا في إبطال منزلة العمل، إذ جاءت نصوص الوحي متضافرة على أن العمل الصالح سبب لنيل رضوان الله والفوز بجنته.

ثم وصف سبحانه الجنة بقوله :﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فجاء التعبير بالجمع؛ لما في الجنة من تعدد الدرجات والمنازل والبساتين، وما أعد الله فيها لأهلها من ألوان النعيم . وجريان الأنهار من تحتها يصور دوام النضارة والحياة والخصب، ويمنح المشهد حركة متجددة لا تنقطع، بخلاف نعيم الدنيا الذي تعرض له الآفات ويعتريه الزوال.

وهذا الوصف يتجاوز مجرد الإخبار بوجود الماء؛ إذ يجعل الأنهار جزءًا من بنية النعيم ومشهد الجنة، فتتجدد في نفس المؤمن صورة الدار التي لا ينفد خيرها ولا ينقطع سرورها.

ثم يقابل سبحانه هذا المآل بمآل الفريق الآخر، فيقول :﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾)سورة محمد :١٢ .(وهذه المقابلة ليست بين فريقين في مقدار ما ينالانه من متاع الدنيا، وإنما بين تصورين للحياة وغايتين مختلفتين للوجود.

فالمؤمن يعيش في الدنيا على مقتضى الإيمان، ويجعل ما فيها وسيلة إلى رضوان الله، أما الكافر الذي أعرض عن الآخرة، فقد حصر غايته في التمتع العاجل، وصار استغراقه في الشهوات هو الذي يوجه حياته.

وقوله :﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾ يصور استمرارهم في الاسترسال مع اللذة، وقد جاء الفعلان بصيغة المضارع للدلالة على تجدد هذا السلوك وامتداده .ولم يذكر سبحانه في وصفهم عملًا يتجاوز دائرة الاستهلاك والانتفاع الحسي؛ لأن المقصود بيان حال من جعل الدنيا غايته، لا مجرد وصف كل ما يصدر عن الكافرين من أفعال.

أما قوله :﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ فليس المقصود به التسوية بين الإنسان والأنعام في أصل الحاجة إلى الطعام والشراب، فالأنبياء والصالحون يأكلون ويشربون، وإنما وجه التشبيه هو الاقتصار على إشباع الشهوة، والغفلة عن الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، وعن الحساب الذي ينتظره.

فالأنعام تأكل بطبيعتها، ولا تكلف بمعرفة ربها ولا بالنظر في مآلها، أما الإنسان فقد أعطي العقل والتمييز، وخوطب بالوحي، وأقيمت عليه الحجة، فإذا عطّل هذه الوظائف، وجعل حياته دائرة حول شهواته، فقد نزل بنفسه عن المرتبة التي كرمه الله بها.

وهذا المعنى تؤيده آية الأعراف :﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾)سورة الأعراف :١٧٩ .(فوجه الشبه في الموضعين هو تعطيل الانتفاع بوسائل الهداية، لا مجرد الاشتراك في الصفات الجسدية.

ثم تأتي الجملة الحاسمة :﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ .والمثوى هو موضع الإقامة والاستقرار، وفي اختيار هذا اللفظ إشارة إلى أن التمتع الذي استغرقوا فيه ليس هو المآل الأخير، وأن ما جعلوه غاية لحياتهم ينقطع، بينما يبقى الجزاء الذي أعدوه لأنفسهم بالكفر والإعراض.

وهكذا تتجلى المقابلة :جنات تجري من تحتها الأنهار في مقابل نار تكون مثوى، وإيمان وعمل صالح في مقابل تمتع مجرد من الاستعداد للآخرة .وليس المقصود ذم الانتفاع بالمباحات، وإنما ذم أن تستولي الدنيا على الإنسان حتى تحجبه عن ربه وعن المصير الذي هو صائر إليه.

انتقال الخطاب من مصير الفريقين إلى الاعتبار بمصير الأمم

يقول الله تعالى :﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾)سورة محمد :١٣ .(بعد أن قرر سبحانه اختلاف مآل المؤمنين والكافرين، انتقل إلى إقامة شاهد من التاريخ على أن القوة المادية لا تمنح أصحابها حصانة من حكم الله، وأن القرية التي أخرجت الرسول ﷺ ليست أول أمة تقف في وجه الحق، ولا أقوى أمة مرت على الأرض.

وقوله :﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ تركيب يفيد التكثير، أي :وكم من قرية كثيرة قد كانت أشد قوة من قريتك .و« كأين «من ألفاظ التكثير، ويأتي تمييزها مفردًا مجرورًا بـ«من«، كما في الآية . والمقصود بالقرية هنا أهلها، إذ جرى استعمال اسم المكان وإرادة سكانه، وهو من التعبير العربي المألوف.

وأما ﴿قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ فالمراد بها مكة، وإسناد الإخراج إلى القرية باعتبار أهلها الذين حملوا النبي ﷺ على الخروج منها بسبب أذاهم وتكذيبهم ومقاومتهم للدعوة.

ولم يقل :التي خرجت منها، بل قال :﴿أَخْرَجَتْكَ﴾، وفي هذا إظهار لعدوان أهلها عليه، وأن خروجه لم يكن مجرد انتقال اختياري عن وطن يألفه، وإنما كان نتيجة اضطهاد قومه له وإصرارهم على منعه من تبليغ رسالة ربه.

ثم جاء قوله :﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ جوابًا عن الاعتبار المستفاد من ذكر الأمم السابقة، وهو تهديد لقريش بأن ما وقع للأمم الأقوى منها ليس ممتنع الوقوع عليها .وضمير العظمة في ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يفيد أن الإهلاك واقع بقدرة الله وتدبيره، فلا تمنع كثرة العدد ولا شدة البأس من نفاذ قضائه.

وقوله :﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ نتيجة للإهلاك، ونفي للقدرة على دفع حكم الله عنهم .فالذي يملك القوة في الدنيا قد يعجز عن حماية نفسه حين يأتي أمر الله، والذي يتوهم أن كثرة أتباعه أو تحالفاته تمنحه الأمان، لا يجد عند حلول العقوبة من يردها عنه.

وفي تخصيص قريش بالمقارنة مع الأمم الأشد قوة تهديد بليغ؛ إذ إذا كانت تلك الأمم قد أهلكها الله مع ما كان لها من قوة، فقريش أولى بأن تخشى عاقبة التكذيب والعناد، وألا تغتر بما تملكه من سلطان أو عصبية.

ولا يلزم من الآية أن كل أمة أقوى من قريش قد أهلكت بسبب واحد أو في زمن واحد، وإنما المقصود تقرير سنة الله في الأمم التي كذبت رسلها، وبيان أن القوة لا تمنع الهلاك إذا جاء موجبه.

وفي السياق أيضًا تسلية للنبي ﷺ؛ فإن إخراج قومه له لا يدل على ضعف دعوته ولا على خذلان الله له، فقد سبق أن أخرجت أمم رسلها، ثم كان العاقبة للحق وأهله .فالمشهد التاريخي هنا يؤدي وظيفة مزدوجة :إنذار للمكذبين، وتثبيت للمؤمنين.

البينة والهوى :اختلاف الأصل الذي تصدر عنه المواقف

يقول الله تعالى :﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾)سورة محمد :١٤ .(بعد أن كشف سبحانه أن القوة لا تحمي المكذبين من عاقبة التكذيب،

انتقل إلى بيان أصل الاختلاف بين الفريقين؛ فالاختلاف ليس في المصير وحده، بل في المنطلق الذي يصدر عنه كل فريق، وفي الطريق الذي يسلكه للوصول إلى ذلك المصير.

والاستفهام في ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ إنكاري، يراد به نفي المساواة بين صاحب البصيرة والهدى وبين من استولى عليه تزيين الباطل واتباع الهوى .والتقدير :أَيَستوي من كان على حجة واضحة من ربه، ومن زُيِّن له سوء عمله واتبع هواه؟ والجواب الذي يقرره السياق : لا يستويان.

والتعبير بقوله :﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أدق من مجرد قوله :من كان عالمًا أو عارفًا؛ لأن البينة حجة ظاهرة تكشف الحق وتقوم عليه، ولفظ »على «يصور تمكن صاحبها من الحجة واستناده إليها، كأنه قائم على أساس ثابت لا يتزعزع.

وإضافة البينة إلى الرب في قوله :﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ تشير إلى مصدرها الإلهي، وأن الهداية التي يقوم عليها المؤمن ليست مجرد قناعة ذاتية أو استحسان شخصي، وإنما هي نور جاءه من ربه، واستند فيه إلى الوحي والدليل.

وهذا المعنى يتصل اتصالًا وثيقًا بما سبق في السورة من قوله تعالى :﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾)سورة محمد :١٧(، فإن البينة أصل الاهتداء، وزيادة الهدى ثمرة الاستجابة لها.

وفي المقابل يقول سبحانه :﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾، ولم يقل :كمن فعل سوء العمل فقط؛ لأن الآية تكشف مرحلة أعمق من مجرد الوقوع في المعصية، وهي أن ينقلب إدراك الإنسان حتى يرى القبيح حسنًا، والمنكر مقبولًا، والباطل حقًا.

والتزيين قد يكون من الشيطان بإلقاء الوسوسة وتحسين المعصية، وقد يكون من النفس حين تسترسل مع الشهوة وتبحث عن المبررات التي تسوغ لها ما تريد .وقد نسب القرآن التزيين إلى الشيطان في مواضع، كما في قوله تعالى :﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾)سورة النمل :٢٤(، ونسبه إلى النفس والإنسان في مواضع أخرى بحسب السياق .فلا ينبغي حصر جميع صور التزيين في جهة واحدة.

ثم قال :﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، فجمع بين فساد التصور وفساد الاتباع؛ إذ التزيين يجعل القبيح في نظر صاحبه حسنًا، واتباع الهوى يجعله يمضي في طريقه دون أن يرد نفسه إلى ميزان الوحي .وهنا تتضح العلاقة بين البينة والهوى :صاحب البينة يجعل الحق حاكمًا على رغبته، أما صاحب الهوى فيجعل رغبته حاكمة على ما يقبله من الحق.

ويلاحظ أن الآية بدأت بالإفراد في قوله :﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾، ثم جاءت بصيغة الجمع في ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ .وقد ذكر المفسرون في توجيه ذلك أوجهًا، منها أن المراد بالموصول جنس من زُيِّن له سوء عمله، وأن الانتقال إلى الجمع باعتبار المعنى، أو أن الكلام انتقل من وصف شخص إلى وصف جماعة .ولا يتوقف أصل المعنى على تعيين وجه واحد من هذه الأوجه؛ فالمقابلة واضحة بين أهل البينة وأهل التزيين والهوى.

وهذه الآية من أصول النظر القرآني في اختلاف المواقف؛ إذ لا يكفي أن ننظر إلى ظاهر الفعل وحده، بل ينبغي أن ننظر إلى الأصل الذي يصدر عنه، وإلى علاقة الإنسان بالحق : أهو مستند إلى حجة من ربه، أم أسير لما زُيِّن له من رغباته؟

وفيها كذلك تحذير من أخطر صور الانحراف، وهي أن يفقد الإنسان القدرة على رؤية انحرافه، فيتحول الخطأ في نفسه إلى صواب، ويصير اتباع الهوى عنده مبررًا لمزيد من الإعراض .وهذا أبلغ من مجرد وقوعه في الذنب مع اعترافه بأنه ذنب؛ لأن الاعتراف يفتح باب التوبة، أما استحسان الباطل فيصد عن معرفة موضع الخلل.

وهكذا مهدت الآية للانتقال إلى تفصيل مآل أهل البينة في مقابل مآل أهل الهوى؛ فجاء وصف الجنة والنار بعد تقرير اختلاف الفريقين في أصل الاعتقاد والسلوك.

المثل القرآني للجنة :كمال النعيم ودوام العطاء

يقول الله تعالى :﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ محمد :١٥.

بعد أن قرر سبحانه اختلاف الفريقين في أصل الهداية ومصدر العمل، وأشار إلى اختلاف مآلهما، أخذ يفصل صورة الجزاء، فذكر الجنة وما أعد الله فيها للمتقين، ثم قابل ذلك بصورة

من هو خالد في النار .وهذا الانتقال ليس استطرادًا في وصف النعيم والعذاب، وإنما هو إظهار للمسافة الهائلة بين الطريقين اللذين انتهى إليهما الفريقان.

معنى المثل ووظيفة الوصف

افتتحت الآية بقوله :﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ .والمثل هنا بمعنى الصفة والشأن، وليس المقصود ضرب مثل تمثيلي يقوم على تشبيه الجنة بشيء آخر؛ فالمعنى :صفة الجنة العجيبة التي وعد الله بها المتقين.

وقد اختلف المفسرون في تقدير الخبر المحذوف في هذه الجملة، وفي اتصالها بما بعدها؛ فقيل : التقدير صفة الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار، وقيل :إن الجملة تامة من جهة المعنى بما بعدها، وإن قوله :﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ متصل بالمقابلة السابقة، والتقدير :أَمَثَلُ الجنة كحال من هو خالد في النار؟ وقد بسط ابن عاشور وجوه اتصال الجملة وسياقها، ورأى أن ذكر الجنة عقب المقابلة بين الفريقين يهيئ السامع لتفصيل نعيمها .والأظهر أن المقصود الأساسي هو وصف الجنة، مع بقاء الاستفهام الإنكاري المفهوم من السياق رابطًا بين نعيمها وعذاب أهل النار، دون الحاجة إلى حصر الإعراب في تقدير واحد لا يحتمله غيره .(١)

والتعبير بالوعد يربط النعيم بالوفاء الإلهي؛ فالجنة ليست أمرًا يتخيله المؤمن تعويضًا عن مشاق الحياة، بل هي وعد من الله، ووعده حق لا يتخلف.

كما أن تخصيص المتقين بالذكر يبين أن النعيم الأخروي ليس مجرد جزاء على الانتساب الظاهر إلى الإيمان، بل هو مآل أهل التقوى الذين صدقوا إيمانهم بطاعة الله واجتناب معاصيه.

الأنهار الأربعة وكمال النعيم

بدأ وصف الجنة بقوله :﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾.

والآسن هو الماء الذي تغيرت رائحته أو فسدت لطول مكثه، ومنه قولهم :أسن الماء يأسن إذا تغير .فنفى سبحانه عن ماء الجنة هذه الآفة التي تعرض لمياه الدنيا، فجاء وصفه بنفي التغير، لا بمجرد إثبات العذوبة.

وفي هذا التعبير إشارة إلى انتفاء النقص الذي يعتري أسباب الحياة في الدنيا؛ فالماء الذي تقوم به حياة الأبدان في الجنة لا يتعرض للفساد والتغير الذي تعرفه مياه الأرض.

كما أن معنى غير آسن :غير متغير، وعن قتادة أنه غير منتن .وهذان التفسيران متقاربان، يرجعان إلى أصل لغوي واحد، هو انتفاء تغير الماء وفساده .(٢)

ثم قال سبحانه :﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾. واللبن من أشرف ما يعرفه الإنسان من الغذاء، وقد وصفه القرآن في الدنيا بقوله :﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾)سورة النحل : ٦٦ .(لكنه في الدنيا يتغير طعمه ويفسد إذا طال مكثه، أما لبن الجنة فمستمر على صفته، لا يعتريه تغير ولا فساد.

ولم يكتف القرآن بوصفه بأنه طيب، بل نفى عنه تغير الطعم، ليكون النعيم كاملًا في ذاته ومستمرًا في أثره.

ثم قال تعالى :﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾. وهنا ينبغي التنبه إلى أن خمر الآخرة ليست كخمر الدنيا في حقيقتها وآثارها، فقد وصف الله شراب الجنة في موضع آخر بقوله :﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾)سورة الصافات :٤٧(، أي لا يلحق شاربها أذى الخمر المعروفة من ذهاب العقل أو الصداع أو غير ذلك من المفاسد.

والتعبير بقوله :﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ وصف للخمر بما تشتمل عليه من اللذة، وقد أفرد الوصف باعتبار المصدر، أي ذات لذة، أو شراب لذيذ، وهو تعبير يبرز كمال الانتفاع بها.

فهي لذة خالصة لا تختلط بأذى، بخلاف خمر الدنيا التي تجمع اللذة العاجلة مع الضرر والفساد.

ثم قال سبحانه :﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾. والعسل في الدنيا قد يخالطه ما يحتاج إلى تصفية وتنقية، أما عسل الجنة فقد جاء وصفه بالتصفية المطلقة، ليكون خالصًا من الشوائب، كامل الصفاء والحلاوة.

وتكرار لفظ ﴿أَنْهَارٌ﴾ أربع مرات ليس تكرارًا خاليًا من الدلالة، وإنما هو تفصيل لأجناس النعيم، وإبراز لتنوع موارده .وقد انتقل السياق من الماء إلى اللبن، ثم الخمر، ثم العسل، وهي أصناف مختلفة تتكامل في تصوير وفرة النعيم وتنوعه.

ومن دقائق البيان أن القرآن لم يكتف بذكر أنهار من ماء، بل أتبعها بأنهار من اللبن والخمر والعسل، ليخرج وصف الجنة من حدود الحاجة الضرورية إلى سعة التلذذ والكرامة .

فالإنسان يحتاج إلى الماء لبقاء حياته، ولكنه يجد في اللبن غذاءً، وفي الخمر لذة، وفي العسل حلاوة، وقد جمع الله لأهل الجنة هذه الأجناس في صورة أنهار جارية.

ولا ينبغي أن نقيس كيفية هذه الأنهار على خصائص أنهار الدنيا؛ فالمسمّيات معلومة لنا من جهة أصل الاسم، أما حقائق نعيم الجنة وكيفيته فمما استأثر الله بعلمه، وقد أخبرنا من صفاته بما يقرب المعنى إلى أفهامنا دون أن يجعل نعيم الآخرة مطابقًا لنعيم الدنيا.

عموم الثمرات والمغفرة :تمام النعيم ظاهرًا وباطنًا

ثم قال سبحانه :﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾. بعد أن ذكر الأنهار، انتقل إلى الثمرات، وهي من وجوه النعيم التي تتصل بحاجات الإنسان ورغباته .والتعبير بقوله :﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يفيد سعة التنوع وعموم أصناف ما يتلذذ به أهل الجنة، فلا يختص نعيمهم بنوع واحد من الطعام أو الشراب.

وقد جاء نظير هذا الوصف في قوله تعالى :﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾)سورة إبراهيم : ٢٣(، وفي قوله :﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾)سورة الرحمن :١١(، وفي غيرهما من آيات وصف الجنة.

لكن الآية لم تقف عند النعيم الحسي، بل عطفته على نعمة أجل وأعظم، فقال :﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

وهنا تظهر دقة البناء القرآني؛ فبعد ذكر الأنهار والثمرات، وهي من النعيم الذي تدركه الحواس، ذكر المغفرة، وهي نعمة تتصل بحقيقة العبد ومصيره وعلاقته بربه.

والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عن العقوبة، وهي من أعظم ما يناله المؤمن؛ لأن الإنسان مهما اجتهد في الطاعة فإنه لا يستغني عن عفو الله ورحمته.

وإضافة المغفرة إلى الرب في قوله :﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ تشعر بالقرب والعناية والإحسان؛ فليس الأمر مجرد نجاة من العقوبة، وإنما مغفرة صادرة عن الرب الذي خلقهم وربّاهم وهداهم وأوصلهم إلى دار كرامته.

وقد قدم سبحانه المغفرة بعد ذكر النعيم، ليبين أن نعيم الجنة لا يقتصر على لذة الجسد، بل يشمل طمأنينة النفس من تبعات الذنوب، والأمن من العقوبة، والرضا الإلهي.

وهذا من أعمق وجوه الوصف؛ إذ إن النعيم المادي مهما عظم لا يبلغ تمامه إذا ظل صاحبه خائفًا من زواله أو مؤاخذته، أما أهل الجنة فقد اجتمع لهم النعيم والرضوان والأمن من العذاب.

المقابلة بين الجنة والنار :منتهى الاختلاف بين الطريقين

بعد وصف الجنة قال سبحانه :﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾. وهذا استفهام إنكاري مقدر، يفهم من السياق، ومعناه :أهذا الذي له تلك الجنة والأنهار والثمرات والمغفرة كمن هو خالد في النار؟ والجواب الذي يقتضيه السياق :لا يستويان أبدًا.

وقد جاءت المقابلة هنا امتدادًا للمقابلة في الآية الرابعة عشرة؛ فهناك نفى التسوية بين صاحب البينة وصاحب الهوى، وهنا نفى التسوية بين مآلهما .فاختلاف الطريق يستتبع اختلاف المصير.

والتعبير بالخلود في النار يقرر دوام العذاب لمن مات على الكفر، وهو من المعاني العقدية المقررة في القرآن الكريم، وقد تكرر تقريره في مواضع متعددة، منها قوله تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾)سورة البقرة :١٦١-١٦٢.(

ثم ينتقل السياق من وصف الخلود إلى تصوير نوع من العذاب، فيقول :﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

والحميم هو الماء الشديد الحرارة، الذي بلغ غاية السخونة، وقد جاء ذكره في القرآن في مواضع أخرى مقرونًا بعذاب أهل النار، كما في قوله تعالى :﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾)سورة الكهف :٢٩.(

واختيار لفظ ﴿سُقُوا﴾ يصور إيقاع العذاب عليهم، وأنهم لا يجدون في الشراب ما يجده أهل الجنة من اللذة والراحة، بل يصبح الشراب نفسه أداة للعقوبة.

ثم قال :﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾، والأمعاء جمع مِعًى، وهي ما في البطن من الأعضاء التي يمر بها الطعام .والفعل ﴿فَقَطَّعَ﴾ يصور شدة أثر الماء الحميم في أجوافهم، حتى يبلغ العذاب ما في بطونهم من الأمعاء.

وهذا التصوير ليس وصفًا مجازيًا لمجرد الألم النفسي، بل إخبار عن عذاب حقيقي من عذاب الآخرة، أخبر الله به، ويجب الإيمان به على الوجه الذي جاء به الوحي، من غير تشبيه لكيفيته بما يقع في الدنيا.

وفي التعبير بالفعل ﴿فَقَطَّعَ﴾ ما يكشف عن فظاعة أثر هذا الشراب؛ فالماء الذي يكون في الدنيا سببًا للحياة والراحة، يتحول في ذلك المقام إلى سبب للعذاب والهلاك.

وتكتمل بذلك المقابلة بين الفريقين:

فأهل الجنة لهم أنهار من ماء لا يتغير، ولبن لا يفسد طعمه، وخمر لذة للشاربين، وعسل مصفى، وثمرات ومغفرة من ربهم.

وأهل النار يسقون ماء شديد الحرارة، فيكون شرابهم سببًا لتمزيق أمعائهم.

وليس الفرق مجرد اختلاف في الطعام والشراب، بل هو اختلاف في الكرامة والمآل؛ فهؤلاء أكرمهم الله برضوانه، وأولئك أهانهم بعدل حكمه.

وهكذا يختم المقطع مشهدًا يقيم الحجة على الإنسان من جهتين :جهة العقل والبصيرة، وجهة المصير والجزاء .فمن كان على بينة من ربه ليس كمن زُيّن له سوء عمله واتبع هواه، ومن انتهى إلى الجنة ليس كمن استقر في النار.

ومن هنا يتبين أن وصف الجنة والنار ليس منفصلًا عن موضوع السورة، بل هو كشف عن العاقبة النهائية للصراع الذي افتتحت السورة ببيانه، وعن حقيقة النصر والخسران في ميزان الله.

الهوامش

١. ابن عاشور، *التحرير والتنوير*، تفسير سورة محمد، الآية الخامسة عشرة؛ ينظر في تحرير اتصال قوله :﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ بما قبله، وتقدير الخبر ووجوه النظم

٢. الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة محمد، الآية الخامسة عشرة؛ وينظر كذلك تفسير ابن كثير والقرطبي للآية .

القسم الخامس :التفسير التفصيلي لسورة محمد

المقطع الرابع :موقف المنافقين من الوحي، وتفاوت القلوب في الانتفاع بالهداية، والإنذار بقرب الساعة، والأمر بالعلم والاستغفار

قال الله تعالى:﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

التفسير والتحرير

أولًا :الاستماع الذي لا يثمر إيمانًا، والطبع على القلوب واتباع الأهواء

قال الله تعالى:﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ (محمد :١٦) .يكشف الله سبحانه عن صورة من صور النفاق في التعامل مع الوحي؛ فهؤلاء يحضرون مجلس النبي ﷺ، ويستمعون إلى كلامه، ولكن حضورهم لا يتحول إلى فهم، واستماعهم لا يبلغ مرتبة الاعتبار، ولا يترك في نفوسهم أثرًا يحملهم على الاستجابة .فإذا خرجوا من عنده سألوا أهل العلم :ماذا قال آنفًا؟ فكأنهم كانوا حاضرين بأجسادهم، غائبين بقلوبهم وعقولهم.

وقوله :﴿وَمِنْهُم﴾ متصل بما سبق من الحديث عن الذين في قلوبهم مرض، وعن حالهم في تلقي الوحي؛ فهو انتقال من وصف موقفهم من القرآن إلى تصوير أثر ذلك الموقف في سلوكهم عند مجالسة الرسول ﷺ .وليس المراد مجرد عدم ضبط بعض الألفاظ أو نسيان بعض ما سمعوه؛ فإن النسيان يعرض للإنسان، وإنما المقصود هنا حال من يتلقى الخطاب من غير إقبال على فهمه، ولا استعداد للانتفاع به، حتى يصبح سماعه صورة ظاهرية لا تتجاوز الأذن إلى القلب.

وقد نقل الطبري عن قتادة في تفسير الآية أنهم المنافقون، وذكر وصف الناس في الاستماع بأن منهم سامعًا عاملًا، وسامعًا غافلًا، وسامعًا تاركًا .وهذا الأثر يوضح أن مجرد وصول الكلام

إلى السمع لا يستلزم حصول الهداية، وأن الناس يتفاوتون في موقفهم من المسموع بحسب ما في قلوبهم من إقبال أو إعراض) .١(

والتعبير بالفعل ﴿يَسْتَمِعُ﴾، دون الاقتصار على »يسمع«، يستحضر صورة التوجه الظاهر إلى الكلام والإنصات إليه، لكن السياق يكشف أن هذا التوجه لم يصحبه انتفاع حقيقي. فالاستماع هنا لا يدل بنفسه على حسن التلقي؛ إذ قد يستمع الإنسان طلبًا للحق، وقد يستمع مراقبةً أو مجاملةً أو استهزاءً، والعبرة بما ينعقد عليه القلب وما يترتب على السماع من موقف.

ثم يقول سبحانه :﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾، وفي هذا التحديد الزمني تصوير لانكشاف حقيقة موقفهم بعد مفارقة مجلس النبوة .فقد كان يمكن أن يستروا ما في نفوسهم أثناء حضورهم، ولكنهم ما إن ينصرفوا حتى يظهر أثر الإعراض في سؤالهم .وليس السؤال في ذاته مذمومًا؛ فسؤال من فاته شيء أو لم يفهمه من أهل العلم محمود، وإنما المذموم أن يكون السؤال ناشئًا عن الاستخفاف بالخطاب وعدم الاعتناء به، وهو الذي يدل عليه سياق الآية وما أعقبه من وصف الطبع واتباع الهوى.

وأما قوله :﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾، فـ«آنفًا »بمعنى الساعة أو قبل قليل، وهي متصلة بمعنى الاستئناف والابتداء، أي :ما الذي قاله في كلامه الأخير؟ وقد أشار المفسرون إلى أن اللفظة تدل على أقرب الأزمنة الماضية .وليس في مجرد استعمالها ذم، وإنما الذم في المقام الذي وردت فيه، وما يكشف عنه من عدم اكتراث هؤلاء بما سمعوا) .٢(

وقد ذكر البغوي في تفسير الآية روايةً عن مقاتل في سؤال المنافقين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، على وجه الاستهزاء، عما قاله النبي ﷺ .وهذه الرواية تُذكر في بيان ما رُوي في تصوير الحادثة، لكن لا يتوقف تفسير الآية على الجزم بتعيين الواقعة أو الأشخاص؛ لأن دلالتها العامة ثابتة من نظمها وسياقها(٣).

وقوله سبحانه :﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وصف لأهل المعرفة الذين كانوا يدركون ما يقوله الرسول ﷺ وينتفعون به، وفيه مقابلة ضمنية بين حالين :حال من يسمع ولا يعي، وحال من أوتي علمًا يفتح له باب الفهم والاعتبار .ولم يصفهم بمجرد كثرة السماع، بل بإيتاء العلم، إشارة إلى أن العلم الذي يعتد به هو الذي يثمر بصيرة في تلقي الوحي وفهم مراده.

ثم يأتي الحكم الإلهي الكاشف عن حقيقة هذا الموقف :﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ .فالطبع على القلب هو الختم عليه حتى لا ينفذ إليه الحق نفاذ الانتفاع والقبول، وهو عقوبة مترتبة على الإعراض والإصرار، لا وصف منفصل عن فعل الإنسان واختياره.

ويجمع النظم بين أمرين :الطبع على القلوب، واتباع الأهواء .وفي هذا الجمع بيان لحقيقة الانحراف من جهتيه :جهة انغلاق القلب عن إدراك الحق والانتفاع به، وجهة فساد القصد باتباع الرغبات التي تصرف الإنسان عنه .وقد عبّر الطبري عن ذلك بأنهم رفضوا أمر الله واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم، فلا يرجعون إلى حقيقة ولا برهان) .٤(

وليس في نسبة الطبع إلى الله تعالى ما يرفع عن الإنسان مسؤوليته؛ فإن الآية نفسها أثبتت اتباعهم أهواءهم، وجعلت هذا الوصف جزءًا من بيان حالهم .ويشهد لهذا الأصل قوله تعالى في موضع آخر :﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف :٥)، فالإزاغة عقوبة على الزيغ السابق، والله سبحانه لا يظلم أحدًا، وإنما يجازي العبد بحسب ما اختاره من طريق الحق أو الإعراض عنه.

ومن ثم لا يصح أن يُفهم الطبع هنا على أنه عذر للمنافقين، بل هو بيان لخطورة الاستمرار في الإعراض حتى يبلغ بصاحبه حالًا يستثقل فيها الحق ولا ينتفع بسماعه، ويصبح الهوى هو المرجع الذي يزن به ما يسمع ويقبل ويرد.

وهذه الآية لا تذم نقص المعلومات وحده، بل تكشف عن مرض أعمق :أن يتلقى الإنسان الوحي ولا يجعل نفسه مستعدة للانقياد له؛ فيطلب العلم حين يخدم هواه، ويعرض عنه حين يطالبه بتغيير موقفه .ولذلك كان فساد الإرادة أشد أثرًا من مجرد نقص المعرفة؛ لأن المعرفة قد تنمو بالبحث والسؤال، أما الهوى إذا استولى على صاحبه فإنه يجعل السؤال نفسه وسيلة للمراوغة لا طريقًا إلى الهداية.

ثانيًا :تفاوت الناس في الانتفاع بالوحي، وزيادة الهداية بالتقوى

قال الله تعالى :﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد :١٧) .لما ذكر سبحانه حال الذين طُبعت قلوبهم واتبعوا أهواءهم، قابلهم بحال أهل الهداية، ليبين أن الوحي الواحد

قد يسمعه فريقان، فيكون لأحدهما سببًا في مزيد الضلال، ويكون للآخر سببًا في زيادة الإيمان والبصيرة والتقوى .وليس الاختلاف في أصل الخطاب، وإنما في استعداد المتلقي وموقفه منه.

وقوله :﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ يربط زيادة الهداية بأصل سابق تحقق لهم؛ فهم لم يكونوا على حال واحدة من الغفلة والإعراض، بل سلكوا طريق الاهتداء، فكان من جزاء ذلك أن زادهم الله هدى .وفي التعبير بالفعل الماضي ﴿اهْتَدَوْا﴾ إشارة إلى تحقق أصل الاستجابة، ثم جاء الفعل ﴿زَادَهُمْ﴾ ليدل على استمرار النماء وعدم الوقوف عند مرتبة واحدة.

وهذا من السنن القرآنية في تربية المؤمن :أن الاستجابة للحق تفتح أبوابًا أخرى من الحق، وأن العمل بما عُلم يكون سببًا لزيادة العلم والبصيرة .ويشهد له قوله سبحانه :﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، وقوله في موضع آخر :﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (مريم :٧٦).

والزيادة في الهداية تحتمل زيادة العلم بالحق، وزيادة البصيرة به، والتوفيق للعمل بمقتضاه، وهذه معانٍ متكاملة لا يلزم أن يكون بينها تعارض؛ فالهداية ليست مجرد معرفة ذهنية، بل علم يثمر تصديقًا وانقيادًا وعملًا.

ثم قال سبحانه :﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ .وهذه الجملة تزيد على معنى الهداية؛ لأن التقوى ثمرة عملية تظهر في سلوك العبد، وهي امتثال أمر الله واجتناب نهيه، واتخاذ ما يقي من عذابه . فذكر التقوى بعد زيادة الهدى انتقال من بيان نمو البصيرة إلى بيان تحقق أثرها في العمل.

وقد تعددت عبارات المفسرين في معنى إيتائهم تقواهم؛ فقيل :أعطاهم جزاء تقواهم وثوابها، وقيل :وفقهم للتقوى وأعانهم عليها، وقيل :أعطاهم ما يتقون به النار من العمل الصالح . وهذه المعاني تتقارب من جهة أن الله تعالى يتولى أهل الهداية بالتوفيق والزيادة والجزاء، وإن اختلفت جهة النظر في كل تفسير.

والذي يظهر من اتصال الجملتين أن الآية تجمع بين زيادة الهداية وإعطاء التقوى، فالأولى تتعلق بنمو المعرفة والبصيرة، والثانية بثمرة ذلك في العمل والامتثال، ولا موجب لقصر اللفظ على معنى واحد مع احتمال اجتماع هذه الدلالات في سياق الامتنان الإلهي.

وفي قوله :﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ إسناد الزيادة إلى الله تعالى، وفيه تقرير أن الهداية من فضله، وأن العبد وإن وجب عليه طلب الحق والاستجابة له، فإنه لا يستقل بتحصيل الهداية من دون توفيق الله .فالهداية فضل إلهي، ولها أسباب شرعية من الإيمان والاتباع والعمل الصالح.

وهنا تظهر المقابلة المحكمة بين الآيتين :ففي الآية السابقة قلوب طُبعت بسبب الإعراض واتباع الهوى، وفي هذه الآية نفوس اهتدت فزادها الله هدى وآتاها تقواها .فالأولى تصور انغلاق القلب على نفسه، والثانية تصور انفتاحه على الوحي ونموه به.

وليس المراد أن المهتدي يستغني عن الهداية بعد حصول أصلها، بل إن حاجته إليها تتجدد في كل مرحلة؛ ولذلك كان المؤمن يسأل ربه الهداية في صلاته، فيقول :﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة :٦)، مع كونه قد دخل في الإيمان .فطلب الزيادة في الهداية ليس تكرارًا لتحصيل ما حصل فحسب، بل طلب للثبات والتوفيق والتبصر بمزيد من الحق والعمل به.

وهذا من أدق ما يكشفه المقطع في تصوير النفس الإنسانية :فالقلب ليس وعاءً محايدًا يستقبل المعلومات على صورة واحدة؛ بل يتأثر بما يختاره صاحبه من مواقف وأعمال .فإذا استسلم للهوى ضاق عن قبول الحق، وإذا استجاب للهداية انفتح لمزيد منها .ومن هنا كانت الاستقامة عملية متجددة، لا دعوى يكتفي بها الإنسان دون مجاهدة ومراجعة.

ثالثًا :مجيء الساعة بغتة، وظهور أشراطها، وانقطاع زمن الانتفاع بالتذكير

قال الله تعالى :﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ (محمد :١٨) .بعد أن كشف سبحانه تفاوت الناس في تلقي الوحي، نقل الخطاب إلى مآل هذا التفاوت، فأنذر المعرضين بأن استمرارهم في الإعراض لا يعني امتداد فرصة التوبة إلى غير نهاية؛ فإن الساعة آتية، وقد ظهرت مقدماتها، وإذا جاءت لم يعد التذكير نافعًا لمن لم يستعد لها.

وقوله :﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ استفهام إنكاري، معناه أنهم لا ينتظرون، باستمرارهم على الإعراض والتكذيب، إلا أن تفجأهم الساعة .والانتظار هنا ليس انتظارًا واعيًا مستعدًا، بل هو تصوير لحال من يمضي في غفلته حتى يأتيه الأمر الذي لا يستطيع دفعه.

والساعة هي القيامة التي ينتهي عندها التكليف الدنيوي وتبدأ أحوال الجزاء، وقد جاء التعبير عنها بـ«الساعة «لما في الاسم من معنى الوقت المحدد الذي يأتي بغتة، ويقع فيه التحول العظيم الذي لا يملك الناس رده.

ثم وصف مجيئها بقوله :﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾، أي فجأة من غير توقع منهم ولا استعداد .والبغتة تفيد المباغتة التي تقطع على الغافل ما كان فيه من انشغال، فلا تمنحه فرصة إعداد جديدة . وليس معنى ذلك أن الساعة لا علامات لها؛ فقد صرح القرآن في الآية نفسها بقوله :﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾، وإنما المباغتة باعتبار حلولها الفعلي بالنسبة إلى من لم يستعد لها، وإن كانت مقدماتها قد ظهرت.

والأشراط جمع شَرَط، وهو العلامة والأمارة التي يُستدل بها على قرب الأمر .وقوله :﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يدل على أن للساعة مقدمات وعلامات جعلها الله دالة على اقترابها، وأن وقوعها ليس أمرًا مجهول الصلة بحياة الناس، وإن ظل وقتها المحدد غيبًا لا يعلمه إلا الله.

وقد ذكر ابن كثير أن بعثة النبي ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل، وببعثته اكتمل الدين وقامت الحجة على العالمين، واستدل بقوله تعالى :﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر :١)، وبالآيات الدالة على قرب الحساب(٥)

ويؤيد هذا المعنى ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : »بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين«، وقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى .والحديث يدل على قرب الساعة بالنسبة إلى ما مضى من عمر العالم، وعلى أن بعثته ﷺ علامة من علاماتها، ولا يدل على تحديد زمن وقوعها.(٦)

وهنا ينبغي التمييز بين ثبوت العلامات وبين الاجتهاد في ترتيبها وتحديد أوقاتها؛ فالقرآن أثبت مجيء الأشراط، والسنة الصحيحة بينت جملة من علاماتها، أما تحديد موعد الساعة أو القطع بتوقيت قريب لها فليس مما يملكه البشر .وقد قال الله تعالى :﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ (النازعات :٤٢-٤٤).

ثم يأتي الاستفهام الذي يشتد به الإنذار :﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾، أي :كيف يكون لهم حينئذ تذكر أو انتفاع بالتذكر؟ و«أنّى «هنا تفيد الاستبعاد والإنكار، والمعنى أن التذكر الذي ينفعهم في الدنيا لن يكون متاحًا لهم على الوجه الذي ينجيهم إذا جاءت الساعة.

وفي لفظ ﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ دقة؛ إذ لم يقتصر السياق على ذكر مجيء الساعة، بل ذكر ما يكون لهم عند مجيئها من التذكر .فكأن الآية تواجههم بسؤال عن قيمة الندم بعد فوات زمن العمل : ماذا ينفعهم أن يتذكروا حين لا يعود التذكر قادرًا على تغيير المصير؟

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى في سورة المؤمنون :﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ (المؤمنون :٦٤-٦٥)، وقوله في سورة الأنعام :﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ (إبراهيم :٤٤).

فالتذكر الذي يكون بعد انكشاف الحقيقة ليس كالتذكر الذي يحمل صاحبه في زمن الاختيار على الإيمان والعمل .الأول إقرار بعد انقطاع التكليف، والثاني إيمان واستجابة في وقت الإمكان.

ويتصل هذا المعنى اتصالًا وثيقًا بما سبق من وصف المنافقين؛ فهم يسمعون الوحي ولا ينتفعون به، ويؤجلون الاستجابة، كأنهم يملكون الزمن ويضمنون امتداد الفرصة .فجاء ذكر الساعة ليهدم هذا الوهم، ويبين أن زمن التذكير محدود، وأن الغفلة لا توقف مجيء الأجل.

وفي ذلك توجيه تربوي عميق :لا ينبغي للإنسان أن يجعل ظهور الحق أو بلوغ الموعظة أمرًا مؤجل الأثر، فإن العلم الذي لا يتحول إلى عمل في زمن الاختيار قد يصير حجة على صاحبه، ويأتي وقت يتمنى فيه أن يعود إلى الدنيا ليعمل، ولا يكون له ذلك.

رابعًا :الأمر بالعلم والتوحيد والاستغفار، وإحاطة علم الله بأحوال العباد

قال الله تعالى :﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ (محمد :١٩) .بعد الإنذار بمجيء الساعة، وما يترتب عليها من انقطاع زمن التذكر النافع، جاء الأمر بالعلم بالتوحيد والاستغفار؛ ليبين الطريق الذي ينبغي أن

يسلكه المؤمن قبل فوات الأوان .فليس المقصود من ذكر الساعة مجرد التخويف من أحداثها، وإنما حمل الإنسان على تصحيح اعتقاده، وتجديد صلته بربه، والاستعداد للقائه.

وافتتح الأمر بقوله :﴿فَاعْلَمْ﴾، والعلم هنا ليس مجرد معرفة لفظية أو إقرار ذهني عابر، بل العلم الذي تقوم عليه العقيدة وتنبني عليه العبادة والاستجابة .وقد جاء الأمر به بعد ذكر حال المنافقين الذين يستمعون ولا يعون، وحال المهتدين الذين يزيدهم الله هدى؛ فكأن السياق يبين أن النجاة من حال الإعراض تكون بتحقيق العلم النافع الذي يثمر التوحيد والعمل.

والفاء في ﴿فَاعْلَمْ﴾ تفيد اتصال الأمر بما قبله، وكأن المعنى :إذا كان هذا شأن الساعة، وكان التذكر بعد مجيئها لا ينفع المعرض، فليكن موقفك الآن قائمًا على العلم بحقيقة التوحيد، والاستغفار، والاستعداد للقاء الله.

ثم قال سبحانه :﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ .وهذه الجملة هي أصل الدين وأساس دعوة الأنبياء جميعًا؛ فهي تنفي استحقاق العبادة عما سوى الله، وتثبتها له وحده .وليس معناها مجرد الإقرار بأن الله موجود أو أنه الخالق؛ فإن المشركين كانوا يقرون بجملة من معاني الربوبية، ولكنهم لم يخلصوا العبادة لله .وإنما حقيقتها إفراد الله تعالى بالإلهية والعبادة، ونفي الشريك عنه في ذلك.

وفي تقديم الأمر بالعلم بالتوحيد على الأمر بالاستغفار دلالة على منزلة العلم وأصالته؛ فالتوحيد أصل الأعمال، والاستغفار من أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله .ولا يستقيم بناء العبودية إلا على معرفة المعبود وإفراده بالقصد والعبادة.

والخطاب للنبي ﷺ، وهو أكمل الخلق معرفة بربه وأعظمهم تحقيقًا للتوحيد، وفي ذلك تعليم للأمة أن العلم بالتوحيد لا ينفك عن حياة المؤمن، وأنه ليس مرحلة يتجاوزها العبد بعد دخوله في الإسلام، بل هو أصل دائم يتجدد أثره في الاعتقاد والعبادة والعمل.

ثم قال تعالى :﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ .والاستغفار طلب المغفرة من الله تعالى، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه والوقاية من أثره وعقوبته .وقد أمر الله نبيه ﷺ بالاستغفار، مع كمال مقام النبوة وما ثبت للأنبياء من العصمة فيما يبلغونه عن الله تعالى.

وهنا ينبغي تحرير دلالة الآية دون تحميلها ما لا تحتمل؛ فالأمر بالاستغفار لا يقتضي وحده إثبات ذنب على الوجه الذي يتوهمه من لا يميز بين مقام النبوة ومقام سائر المكلفين .وقد قرر القرآن في شأن النبي ﷺ مقام الاجتباء والهداية والاصطفاء، كما قال سبحانه :﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ (النجم :٢).

والاستغفار من النبي ﷺ عبادة وقربى، وإظهار لتمام العبودية والافتقار إلى الله، وتعليم للأمة أن العبد مهما بلغ من الصلاح والطاعة لا يستغني عن مغفرة الله ورحمته .كما أن مقام النبوة لا يرفع أصل العبودية، بل يزيد صاحبَه كمالًا في الخضوع والإنابة.

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال» :والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة .«وثبت في صحيح مسلم من حديث الأغر المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال» :إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة .«وهذان الحديثان يدلان على كثرة استغفار النبي ﷺ ودوام إنابته إلى الله، ولا يجوز حملهما على معنى يناقض مقام النبوة والعصمة فيما أُرسل به) .٧(

ثم وسع الأمر من استغفار النبي ﷺ لنفسه إلى استغفاره لأهل الإيمان، فقال سبحانه : ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ .وفي هذا الانتقال دلالة على أن الصلة الإيمانية لا تقف عند صلاح الفرد، بل تتجاوز ذلك إلى الدعاء للمؤمنين والمؤمنات وطلب المغفرة لهم.

وجاء التعبير بلفظ الإيمان، لا بلفظ القرب أو الصحبة، ليكون مناط الدعاء هو رابطة العقيدة التي تجمع أهل التوحيد، رجالًا ونساءً .وفيه تقرير لمعنى الأخوة الإيمانية، وأن المؤمن لا ينحصر اهتمامه في شأن نفسه، بل يحمل هم مغفرة الله لإخوانه وأخواته في الإيمان.

وهذا المعنى متكرر في القرآن، ومنه دعاء إبراهيم عليه السلام :﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إبراهيم :٤١)، ودعاء المؤمنين :﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ (الحشر :١٠).

ومن ثم فإن الاستغفار للمؤمنين ليس عملًا زائدًا عن حقيقة الإيمان، بل هو من مظاهر رحمته وتراحمه، ومن دلائل اتصال المؤمن بجماعة الإيمان، واستشعاره أن النجاة لا ينبغي أن تكون مطلبًا فرديًا مجردًا عن الدعاء للآخرين.

ثم ختمت الآية بقوله سبحانه :﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾، وهذه الجملة تعيد الإنسان إلى استحضار رقابة الله وإحاطة علمه بأحواله كلها.

والمتقلب في أصل اللغة مصدر ميمي أو اسم مكان بحسب الاستعمال، وهو متعلق بالتنقل والتحول والتصرف، والمثوى متعلق بالإقامة والاستقرار .وقد فسّر الطبري المتقلب بتصرف العباد في أعمالهم في اليقظة، والمثوى بإقامتهم في مضاجعهم عند النوم، وذكر أن الله لا يخفى عليه شيء من أحوالهم، وهو مجازيهم على أعمالهم) .٨(

وقيل في معنى المتقلب والمثوى :متصرفهم في الدنيا ومستقرهم في الآخرة، وهو معنى يتلاءم مع عموم اللفظ واتصال الآية بذكر الساعة والجزاء .ولا يلزم حصر الدلالة في أحد الوجهين؛ فإن علم الله يشمل أحوال العباد في انتقالهم وإقامتهم، في الدنيا والآخرة، ولا يخفى عليه شيء من شأنهم.

والذي يظهر أن ختم الآية بهذه الجملة يحمل دلالتين متكاملتين :إحاطة العلم الإلهي بجميع أحوال العباد، وأن هذه الأحوال ليست خارجة عن الحساب والجزاء .فبعد الأمر بالعلم بالتوحيد والاستغفار، جاء التذكير بأن الله يعلم حركة الإنسان وسكونه، وعلانيته وسره، وإقامته وانتقاله.

وهذا الختم مناسب لما سبق من وصف المنافقين؛ فهم يظهرون الاستماع، ولكن الله يعلم حقيقة ما في قلوبهم، ويعلم اتباعهم لأهوائهم، كما يعلم المهتدين وما يقومون به من أعمال . فلا يصح أن يتوهم الإنسان أن الصورة الظاهرة تغني عن حقيقة الباطن، أو أن مجرد حضوره في مجالس العلم يحقق له النجاة.

وفي المقابل، فإن إحاطة علم الله لا تقتصر على كشف أحوال المعرضين، بل تشمل أهل الإيمان أيضًا؛ فيعلم جهادهم ومجاهدة نفوسهم واستغفارهم ودعاءهم، ولا يضيع عنده عمل عامل.

خامسًا :المسائل العقدية والتربوية المتصلة بالمقطع

يتضمن هذا المقطع جملة من القضايا التي تتساند في بناء معنى الهداية والاستعداد للآخرة.

فأولها أن السماع ليس هو الهداية، وأن مجرد حضور مجالس الوحي والعلم لا يكفي لتحقيق الإيمان، ما لم يصحبه فهم وإقبال وانقياد .وهذا يقرر الفرق بين المعرفة التي تدخل في دائرة المعلومات، والمعرفة التي تتحول إلى بصيرة وعمل.

وثانيها أن الطبع على القلوب حق أثبته القرآن، وأنه من العقوبات الإلهية التي تقع بسبب الإعراض والإصرار واتباع الهوى، مع بقاء مسؤولية الإنسان عن اختياره .ولا يجوز أن يُتخذ هذا المعنى ذريعة لليأس من الهداية أو لاتهام الناس بالطبع على قلوبهم دون علم؛ لأن الحكم على السرائر إلى الله، وما يملكه الإنسان هو الدعوة والبيان والنصيحة.

وثالثها أن الهداية تزيد بالطاعة والاستجابة، وأن التقوى ليست مجرد معرفة نظرية، بل ثمرة عملية للعلم والإيمان .فالعبد كلما صدق في اتباع الحق فتح الله له من أبواب الهداية ما لم يكن قد عرفه من قبل.

ورابعها الإيمان باليوم الآخر والاستعداد له؛ فإن الساعة آتية، وقد جاءت أشراطها، ولا يعلم أحد وقتها، وإنما الواجب أن يستعد لها الإنسان في زمن التكليف، قبل أن يأتي الوقت الذي لا ينفع فيه الندم.

وخامسها وجوب تحقيق التوحيد والعناية بالاستغفار؛ فالتوحيد أساس الدين، والاستغفار مظهر الافتقار إلى الله، والدعاء للمؤمنين شاهد على امتداد العبودية إلى الرحمة بالجماعة المؤمنة.

وسادسها استحضار إحاطة علم الله بأعمال العباد وأحوالهم؛ فإن من علم أن الله مطلع على تقلبه ومثواه لم يجعل دينه صورة ظاهرة، ولم يكتف بحضور المجالس أو إظهار الصلاح، بل حرص على إصلاح باطنه وظاهره.

سادسًا :النظم الداخلي للمقطع وصلته ببناء السورة

يأتي هذا المقطع امتدادًا لما سبقه، وليس انتقالًا منفصلًا عن قضية السورة المركزية.

ففي المقاطع السابقة ظهر موقف الكافرين من الدعوة، وبيّن الله مآل الذين كفروا وصدوا عن سبيله، ثم عرض مصير المؤمنين وما أعد لهم من النعيم .وفي الآيات السابقة مباشرة ظهرت المقابلة بين المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والكافرين الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، ثم جاء وصف المنافقين الذين يحضرون مجالس الوحي ولا ينتفعون به.

وهكذا يتدرج الخطاب من بيان المصير إلى كشف أسباب اختلاف الناس في الوصول إليه؛ فليس الاختلاف بين الفريقين اختلافًا في مجرد ما سمعوا، بل في موقفهم من الحق، ومدى استعدادهم للانقياد له.

وقد رتبت الآيات هذا المعنى في أربع حركات متصلة:

تبدأ بفضح الاستماع الذي لا ينتج فهمًا ولا استجابة، ثم تقابله بزيادة الهداية والتقوى عند أهل الإيمان، ثم تنتقل إلى الإنذار بالساعة التي تنتهي عندها فرصة العمل، وتختم بالأمر بالعلم بالتوحيد والاستغفار، والتذكير بإحاطة علم الله.

وهذا الترتيب يكشف عن وحدة دقيقة في بناء الحجة؛ فالآية السادسة عشرة تعرض المرض، والسابعة عشرة تعرض طريق العافية، والثامنة عشرة تذكر بالعاقبة التي لا يجوز الغفلة عنها، والتاسعة عشرة تقرر ما ينبغي أن يقوم عليه الاستعداد للقاء الله.

كما أن في المقطع مقابلة بين الاستماع والتذكر من جهة، وبين العلم والهداية من جهة أخرى؛ فالمنافقون يسمعون ولا ينتفعون، ويأتيهم التذكير فلا يتغير موقفهم، أما المهتدون فيزدادون هدى، ويؤتون تقواهم، ويؤمرون بالتوحيد والاستغفار.

ومن جهة أخرى، فإن ختم المقطع بعلم الله بتقلب العباد ومثواهم يهيئ للانتقال إلى الآيات التالية التي تتناول موقف المؤمنين من الجهاد والطاعة، وموقف الذين في قلوبهم مرض من التكليف، وما يكشفه الامتحان العملي من صدق الإيمان أو ضعف اليقين.

فبعد أن عالجت الآيات خلل التلقي، انتقل السياق إلى اختبار الاستجابة العملية، ليظهر أن الإيمان ليس مجرد استماع ولا مجرد دعوى، وإنما حقيقة تتجلى في الطاعة والثبات حين يقتضي الأمر بذل النفس والمال.

الهوامش

١. الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة محمد، الآية السادسة عشرة، ونقل أقوال قتادة في تفاوت أحوال السامعين . ويمكن مراجعة النص في تفسير الطبري للآية السادسة عشرة .

٢. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة محمد، الآية السادسة عشرة؛ وينظر كذلك تفسير الآية في تفسير القرطبي

٣. البغوي، معالم التنزيل، تفسير سورة محمد، الآية السادسة عشرة .وينظر تفسير البغوي .

٤. الطبري، جامع البيان، تفسير سورة محمد، الآية السادسة عشرة، في بيان معنى الطبع واتباع الهوى.

٥. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة محمد، الآية الثامنة عشرة .وينظر تفسير ابن كثير للآية .

٦. البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «بُعثت أنا والساعة كهاتين»؛ ومسلم، الصحيح، كتاب الفتن وأشراط الساعة، في الحديث نفسه.

٧. البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة؛ ومسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.

٨. الطبري، جامع البيان، تفسير سورة محمد، الآية التاسعة عشرة .وينظر تفسير الطبري للآية التاسعة عشرة .

المقطع الخامس :ابتلاء صدق الإيمان بالطاعة، وكشف الإعراض عن الوحي وعواقبه

الآيات :٢٠-٢٨

.

أولًا : قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

سورة محمد :الآيات ٢٠-٢٨ يتصل هذا المقطع بما انتهى إليه المقطع السابق اتصالًا ظاهرًا؛ فقد أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالاستغفار والثبات على التوحيد، وقرر أن مرجع الخلق إليه ومصيرهم بين يديه، ثم انتقل السياق إلى اختبار أثر هذا الإيمان في واقع الاستجابة لأمر الله .فليس الإيمان دعوى تقف عند حدود التصديق، وإنما تظهر حقيقته حين ينزل الأمر، وتُطلب الطاعة، ويواجه الإنسان ما يخالف هواه ومألوفه.

ومن هنا ينتقل الخطاب من وصف موقف المنافقين عند سماع الوحي إلى كشف موقفهم عند ورود الأمر بالقتال، ثم يتسع ليعالج حقيقة الإعراض عن القرآن، وما ينشأ عنه من قسوة القلب والفساد والارتداد، وينتهي ببيان أن هذه المواقف ليست حوادث منفصلة، بل أسباب تفضي إلى استحقاق العذاب

ثانيًا :التفسير والتحرير

١ .من التطلع إلى نزول الوحي إلى الانكشاف عند ورود التكليف

قال الله تعالى :﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ سورة محمد :الآية ٢٠ .يبين الله تعالى تفاوت موقف المؤمنين وأصحاب القلوب المريضة من نزول الوحي؛ فالمؤمنون يتطلعون إلى نزول سورة تتضمن أمرًا من الله، لما استقر في قلوبهم من الرغبة في تلقي حكمه والاستجابة له، بينما يظهر ما في قلوب المنافقين حين ينزل الأمر الذي يقتضي بذل النفس واحتمال المشقة.

وقوله :﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ معناه :هلا نزلت سورة؟ وهو استفهام خرج إلى معنى التطلع والطلب، وليس اعتراضًا على تأخر الوحي .والذي يظهر من سياق الآية أن المؤمنين كانوا يتشوقون إلى ما ينزل من القرآن، ويترقبون ما يتضمنه من توجيه وتكليف، ولا سيما ما يتعلق بالجهاد؛ إذ كان الإيمان قد نقلهم من مجرد انتظار البيان إلى الاستعداد للعمل بمقتضاه.

وفي هذا السياق مقابلة دقيقة بين فريقين :فريق يريد نزول الوحي ليزداد علمًا وتكليفًا وثباتًا، وفريق لا يطيق مقتضى الوحي حين يمس مصالحه ويعرضه للخطر.

ثم يقول سبحانه :﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ .والإحكام هنا يحتمل أن يراد به أن السورة محكمة في حكمها وبيانها، غير مترددة في الأمر الذي سيق فيها، ويحتمل أن يكون وصفًا للسورة التي جاء فيها حكم القتال، على معنى وضوح التكليف واستقراره . وليس المراد بالضرورة أن كل آية فيها محكمة بمعنى انتفاء النسخ عن جميع أحكامها؛ فالسياق يتجه إلى بيان وضوح الأمر وجديته.

والقتال هنا هو القتال المشروع الذي يأمر به الله ورسوله، لا مطلق استعمال القوة، ولا ما ينفرد الأفراد بتقديره أو ممارسته؛ إذ أحكامه منوطة بالشرع وما يقرره من ولاية وضوابط.

وقوله :﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعيدنا إلى وصف المنافقين الذي سبق في السورة . والمرض هنا مرض الشك والنفاق وضعف اليقين، وليس مرض الأبدان .وقد اختير التعبير

بالمرض لأنه يصور خللًا أصاب باطن الإنسان، فصار عاجزًا عن استقبال الحق استقبالًا سليمًا، وإن ظهر منه خلاف ما يبطن.

ثم يكشف القرآن عن أثر هذا المرض في هيئة الجسد وحركة النظر، فيقول :﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ .وهذا تصوير بالغ لحالهم؛ فالمغشي عليه من الموت قد بلغ به الخوف والضعف مبلغًا يعجز معه عن التصرف الطبيعي، وتضطرب نظراته عند مواجهة ما يخشاه .وكذلك المنافقون، حين يسمعون الأمر بالقتال، تتغير هيئاتهم وتكشف أعينهم ما يحاولون إخفاءه.

ولم يقل :ينظرون إلى القتال، بل قال :﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾؛ لأنهم يواجهون رسول الله ﷺ الذي جاءهم بالتكليف، فيبدو في نظراتهم ما في نفوسهم من حرج وضيق، وكأنهم يرجون أن يصرف عنهم هذا الأمر أو يجدوا سبيلًا إلى التخلص منه.

ثم تأتي كلمة الوعيد :﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ .وهي كلمة وعيد وتهديد، تفيد أن ما ينتظرهم أقرب إلى الهلاك وسوء العاقبة إن استمروا على هذا الموقف .وقد ذكر أهل التفسير في أصلها وتقدير تركيبها أوجهًا، لكن السياق لا يدع مجالًا لصرفها عن معنى التهديد؛ إذ أعقبها ببيان ما كان ينبغي لهم من الطاعة والقول المعروف، ثم ببيان سوء عاقبة الإعراض.

ويظهر من هذا الانتقال أن القرآن لا يكتفي بكشف الخوف الذي استولى عليهم، بل ينقل النظر من الهيئة الظاهرة إلى الموقف الذي ينبغي أن يتخذوه :هل يصدقون في إيمانهم أم يكتفون بدعوى لا تصمد أمام التكليف؟

٢ .الطاعة عند جدّ الأمر وميزان الصدق مع الله

قال الله تعالى :﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ سورة محمد :الآية ٢١ .يوجه الله تعالى النظر إلى الموقف الصحيح الذي كان ينبغي أن يصدر عنهم، وهو الطاعة والقول المعروف، لا التردد والنفور وإظهار الخوف.

وفي إعراب قوله :﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ وتوجيهه وجهان مشهوران عند المفسرين :أحدهما أنه كلام مستأنف، تقديره :طاعة وقول معروف خير لهم، أي إن ما يصلح حالهم هو أن يطيعوا الله ورسوله، وأن يصدر عنهم القول الحسن الموافق للإيمان .والآخر أنه حكاية لما

يظهرونه من القول قبل نزول التكليف، فكأنهم يقولون :أمرنا طاعة وقول معروف، ثم ينكشف خلاف ذلك عند جد الأمر.

والوجه الأول أوفق بكون العبارة توجيهًا وإرشادًا لما ينبغي أن يكون عليه موقفهم، والثاني ينسجم مع تصوير التناقض بين الدعوى السابقة والموقف اللاحق .ولا يمنع السياق من ملاحظة المعنيين من جهة الدلالة، وإن كان حمل الكلام على التوجيه أوضح في اتصاله بقوله :﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾.

والطاعة هنا ليست مجرد إظهار الموافقة باللسان، بل انقياد القلب والجوارح لما أمر الله به . أما القول المعروف فهو القول المستقيم الذي لا يتضمن اعتراضًا على حكم الله، ولا تهربًا من مقتضى التكليف، ولا إظهارًا لما يخالف ما يبطنه الإنسان.

وقوله :﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ من التعبير العربي الذي يسند العزم إلى الأمر نفسه، والمراد إذا جد الأمر واستقر وجاء وقت تنفيذه، فلم يعد مجرد حديث أو احتمال .فالأمر قبل العزم قد يتلقاه المرء بالكلام والوعد، فإذا صار واقعًا ظهرت حقيقة موقفه.

وقوله :﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ ليس المراد به مجرد صدق الخبر، بل صدق العهد والإيمان والنية والاستجابة .فالصدق مع الله أن يوافق ظاهر الإنسان باطنه، وأن تكون طاعته في حال الرخاء موافقة لطاعته عند الشدة.

وقد جاء التعبير بقوله :﴿صَدَقُوا اللَّهَ﴾ بدل أن يقال :صدقوا في القتال، ليدل على أن القضية أوسع من فعل واحد؛ إنها قضية الوفاء بالعهد مع الله، وتحقيق حقيقة العبودية له.

ثم جاء الجزاء :﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾، ولم يفصل الخير هنا؛ ليشمل خير الدنيا والآخرة، وما في الطاعة من صلاح القلب وثبات الجماعة وحفظ الدين، وما ينتظر المطيعين من الثواب . وقد أشار الطبري عند تفسير هذه الآية إلى أن الوفاء بما وعدوا به من الطاعة خير لهم في عاجل دنياهم وآجل معادهم، وهو معنى يعضده عموم اللفظ وسياق السورة) .١(

وهكذا يقرر المقطع ميزانًا عظيمًا في تقويم الإيمان :ليس المعتبر كثرة ما يقوله الإنسان في مقام الأمن، وإنما صدقه حين يصبح التكليف واقعًا لا مجرد وعد.

٣ .من التولي عن الطاعة إلى الإفساد وقطيعة الأرحام

قال الله تعالى :﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ سورة محمد :الآية ٢٢ .بعد أن كشف الله سبحانه موقف المنافقين من أمر القتال، انتقل إلى بيان ما يترتب على التولي عن أمره من فساد يتجاوز صاحبه إلى المجتمع والروابط الإنسانية التي تجمع أفراده.

والخطاب في قوله :﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ يتجه إلى المخاطبين على سبيل التهديد والتوبيخ، وفيه تنبيه إلى أن الإعراض عن أمر الله ليس موقفًا محايدًا، بل قد ينتهي بالإنسان إلى الإفساد في الأرض وقطع ما أمر الله بوصله.

أما قوله :﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ فيحتمل التولي بمعنى الإعراض عن الطاعة والرجوع عن مقتضى الإيمان، ويحتمل معنى التولي في الأرض، أي أن تكون لكم ولاية وتمكين، فتستعملوا ما بأيديكم في الإفساد وقطع الأرحام .وقد جرى تفسير الآية عند طائفة من أهل العلم على المعنى الأول، بينما حملها آخرون على التولي في الحكم والسلطان .ولا يلزم أن يكون المعنيان متدافعين من كل وجه؛ إذ قد يؤدي الإعراض عن هدي الله إلى فساد الفرد والجماعة، سواء أكان الإنسان في موضع ولاية أم لم يكن.

والذي يقويه السياق أن المقصود الأبرز هو التحذير من التولي عن الطاعة، لأن الآيات قبلها تتحدث عن النكوص عند الأمر بالقتال، والآيات بعدها تتحدث عن اللعن والصمم والعمى وإغلاق القلوب عن تدبر القرآن .أما جعل الولاية السياسية المعنى الوحيد للآية فيحتاج إلى قرينة ليست ظاهرة في السياق القريب.

وقوله :﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يضع الفساد نتيجة واسعة لهذا الانحراف؛ فالفساد ليس محصورًا في معصية فردية، وإنما يشمل الاعتداء والظلم ونقض الحقوق وإشاعة أسباب التفرق والعداوة.

ثم خص من صور الفساد قوله :﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، مع أن قطع الرحم صورة من صور الفساد، وذلك لعظم شأنها وخطرها .فالرحم رابطة جعل الله لها حقًا، وجعل صلتها من أسباب التراحم والتكافل واستقامة المجتمع .فإذا انقطعت هذه الرابطة، فقد المجتمع جانبًا

من أسباب الرحمة والتناصر، وتحولت القرابة التي يفترض أن تكون موضع إحسان إلى موضع خصومة وعداوة.

وليس في الآية ما يجعل كل خلاف بين الأقارب قطيعة محرمة، وإنما المذموم هو ترك الحق الواجب في الصلة، والإعراض عن حقوق القرابة، وما يصاحب ذلك من ظلم واعتداء وإفساد.

ويتصل هذا المعنى اتصالًا وثيقًا ببناء السورة؛ فقد بدأ المقطع ببيان الإعراض عن تكليف الجهاد، ثم كشف أن الإعراض عن أمر الله لا يقف عند ترك واجب بعينه، بل قد ينتهي إلى إفساد أوسع وقطيعة في الروابط التي تقوم عليها حياة الناس.

٤ .اللعن والصمم والعمى :عاقبة تعطيل منافذ الهداية

قال الله تعالى :﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ سورة محمد :الآية ٢٣ .

يشير اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى من تقدم وصفهم من أهل التولي والإفساد وقطع الأرحام، فيقرر أن هذه الصفات ليست أمورًا عارضة لا أثر لها في مصير أصحابها، وإنما هي من أسباب استحقاق اللعن والحرمان من الهداية.

واللعن هو الإبعاد عن رحمة الله، وهو من أعظم ما يبتلى به العبد؛ لأن رحمة الله هي أصل النجاة والتوفيق .فإذا استحق الإنسان اللعن بسبب إصراره على الإعراض والفساد، عوقب بحرمانه من أسباب الهداية التي كان ينبغي أن ينتفع بها.

وقوله :﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ ليس المراد به الصمم والعمى الحسيان، بل المراد صمم القلوب عن سماع الحق سماع قبول وانتفاع، وعمى البصائر عن إدراك دلائله .وقد عبّر عن العمى بالأبصار، وجاءت دلالة السياق لتبين أن المقصود ليس مجرد فقد حاسة النظر، بل فقد النظر الذي يهدي صاحبه إلى الحق.

والتعبير بالصمم والعمى يجمع بين تعطيل وسيلتين من وسائل الهداية :السماع الذي يتلقى به الإنسان الموعظة والبيان، والبصر الذي يعتبر به في الآيات والدلائل .فإذا اجتمع الإعراض عن سماع الحق مع عدم الاعتبار بآياته، صار القلب في حال من الانغلاق تمنعه من الانتفاع بما يصل إليه.

وهذا من سنن الله في عباده :أن الإصرار على الإعراض والفساد يفضي إلى مزيد من الحرمان، وأن المعصية إذا استحكمت وأصر صاحبها عليها أثرت في قلبه حتى يضعف قبوله للحق .ولا يعني ذلك أن كل معصية تستلزم زوال القدرة على التوبة، وإنما الحديث عن حال من انتهى به الإصرار إلى استحقاق العقوبة والحرمان.

وتظهر هنا صلة هذه الآية بما قبلها؛ فالمنافقون لم يقفوا عند التردد في التكليف، بل أفضى مرض القلب بهم إلى التولي، ثم قرن القرآن ذلك بالفساد وقطيعة الرحم، ثم بيّن عاقبة هذا المسار باللعن والصمم والعمى .وهذا تدرج في تصوير أثر الانحراف، من فساد الإرادة إلى تعطيل منافذ المعرفة والهداية.

٥ .التدبر وفتح الأقفال :لماذا لا ينتفع المعرضون بالقرآن؟

قال الله تعالى :﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ سورة محمد :الآية ٢٤ .بعد أن ذكر سبحانه الصمم والعمى، جاء هذا الاستفهام ليكشف عن حقيقة المرض الذي يمنع الانتفاع بالوحي، وليعيد النظر إلى القرآن نفسه، الذي كان ينبغي أن يكون أعظم أسباب اليقظة والهداية.

والاستفهام في ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ إنكاري توبيخي، أي :أفلا ينظرون في القرآن نظر اعتبار وتفهم، حتى يدركوا ما فيه من الحق والحجة، ويتبين لهم فساد الطريق الذي يسلكونه؟

والتدبر أبلغ من مجرد القراءة أو سماع الألفاظ؛ لأنه نظر في دلالات الكلام وعواقبه وروابطه، وتفكر في أوله وآخره وما يقتضيه من عمل .ومن ثم لم يقل :أفلا يقرؤون القرآن، بل قال :﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؛ لأن موطن الخلل ليس بالضرورة عدم وصول القرآن إلى أسماعهم، وإنما عدم نفاذ معانيه إلى قلوبهم.

ثم يأتي الاستفهام الثاني :﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ .و«أم «هنا منقطعة، تفيد الانتقال إلى معنى التوبيخ والتقرير، كأن المعنى :بل أعلى قلوبهم أقفال تمنعها من التدبر والانتفاع؟

وإضافة الأقفال إلى القلوب في قوله :﴿أَقْفَالُهَا﴾ تصور القلب كأنه موضع أغلق وأحكم إغلاقه، فلم يعد يتلقى ما يرد عليه من الحق تلقيًا سليمًا .وفي هذا التصوير تنبيه إلى أن القرآن

ليس فاقدًا لقوة البيان أو وضوح الدلالة، وإنما العائق قد يكون في القلب الذي أعرض عن الانتفاع به.

والقفل في أصل دلالته أداة تمنع الوصول إلى ما وراءه، وقد اختير هنا لتصوير الحاجز الذي يمنع القلب من إدراك الحق .ولم يقل :أغطية على قلوبهم، بل قال :﴿أَقْفَالُهَا﴾، لأن القفل يدل على الإغلاق والمنع، ويستدعي في الذهن إمكان الفتح إذا زال المانع.

وهنا تبرز مسألة عقدية وتربوية مهمة :إذا كان الله تعالى هو الذي يطبع على القلوب ويجعل عليها الأقفال، فكيف يكون الإنسان مسؤولًا عن إعراضه؟

والجواب أن القرآن يجمع بين فعل العبد واختياره وبين جزاء الله له على موقفه، فالإنسان يعرض ويكابر ويستكبر، ثم تكون عقوبة الله له أن يحرمه التوفيق، ويزيد قلبه انغلاقًا بحسب ما استحقه من الإصرار .وقد دل على هذا المعنى قوله تعالى :﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف :٥)؛ فبدأ السياق بزيغهم، ثم ذكر ما ترتب عليه من إزاغة الله قلوبهم.

ولا يصح أن تُفهم الآية على أن التدبر خاص بطائفة لا تستطيع سائر القلوب الوصول إليه؛ بل هي دعوة عامة إلى تدبر القرآن، وتحذير من الموانع التي تحول بين الإنسان وبين الانتفاع به.

ومن دقة النظم أن الآية جاءت بعد ذكر الصمم والعمى؛ فالصمم والعمى يصوران تعطيل أدوات التلقي والإدراك، ثم جاءت صورة الأقفال لتبين أن موطن العائق هو القلب نفسه . وبذلك ينتقل السياق من وصف الأثر إلى بيان موضع الداء.

٦ .الارتداد بعد ظهور الهدى :حين ينقلب العلم إلى حجة على صاحبه

قال الله تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ سورة محمد :الآية ٢٥ .ينتقل السياق من الحديث عن القلوب المغلقة عن تدبر القرآن إلى تصوير فئة تجاوزت مجرد ضعف الانتفاع، حتى رجعت عن الهدى بعد أن تبين لها.

وقوله :﴿ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ تصوير للرجوع إلى الوراء بعد التقدم، وفيه إيحاء بأنهم لم يقفوا عند عدم الاستجابة، بل عكسوا اتجاههم، وتركوا الطريق الذي عرفوا صحته .والارتداد

هنا يدل على الرجوع والنكوص، وقد يحمل على الرجوع عن الإيمان إلى الكفر بحسب سياق الآية وحال المخاطبين.

وقوله :﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ قيد بالغ الأهمية؛ لأن الذنب هنا ليس مجرد عدم العلم أو الاشتباه، وإنما الإعراض بعد البيان .فكلما وضح الحق للإنسان ثم تركه عن علم وعناد، عظمت مسؤوليته، وصار علمه حجة عليه لا عذرًا له.

وقد اختلف المفسرون في تعيين المراد بالذين ارتدوا على أدبارهم؛ فقيل :هم المنافقون الذين ظهر نفاقهم حين جاء أمر الله، وقيل :هم طوائف من أهل الكتاب الذين عرفوا صفة النبي ﷺ ثم أعرضوا عن الإيمان به .وذكر بعض المفسرين المعنيين بحسب ما تحتمله الآية من العموم.

والذي يظهر من السياق أن حملها على المنافقين أظهر في اتصالها بما سبق؛ لأن المقطع كله يتحدث عن مرض القلوب، والتردد عند الأمر، والتولي عن الطاعة، والإعراض عن القرآن .لكن لا يلزم من ذلك حصر اللفظ فيهم إذا كانت دلالته تتسع لكل من عرف الهدى ثم رجع عنه.

ثم يبين الله سبب هذا الانحراف :﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ .والتسويل هو تزيين القبيح حتى يبدو حسنًا، وتسهيل الطريق إلى المعصية حتى يضعف استقباحها في النفس . فالشيطان لا يقدم الانحراف في صورته الحقيقية، وإنما يزينه ويكسوه من التبريرات ما يجعل صاحبه يستمر فيه.

وأما الإملاء فيدل على الإمهال وإطالة الأمل، أو ما يكون من تزيين الشيطان لهم وتوسيع آمالهم في البقاء على حالهم، بحسب توجيه القراءة والتفسير .وفي المعنى العام تنبيه إلى أن طول الأمل قد يغري الإنسان بتأجيل التوبة، ويجعله يظن أن أمامه فسحة دائمة للرجوع، حتى يفجأه الموت وقد استقر على الباطل.

وليس معنى نسبة التسويل والإملاء إلى الشيطان رفع المسؤولية عن الإنسان؛ لأن الشيطان يزين ويدعو، والإنسان يقبل أو يرفض .وقد جاء في القرآن إقرار الشيطان نفسه بأنه لم يكن

له سلطان قهر على الناس، وإنما دعاهم فاستجابوا له، كما في قوله تعالى :﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (إبراهيم :٢٢).

فالمسؤولية قائمة على اختيار الإنسان، والتزيين الشيطاني سبب من أسباب الفتنة لا عذر يرفع المؤاخذة.

٧ .الولاء السري لأعداء الوحي وكشف ما تخفيه الصدور

قال الله تعالى :﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ سورة محمد :الآية ٢٦ .يبين الله تعالى في هذه الآية صورة عملية من صور الارتداد والنفاق، وهي أن هؤلاء لم يكتفوا بالإعراض عن أمر الله، بل أقاموا صلة طاعة وتعاون مع الذين كرهوا ما أنزل الله.

والإشارة في قوله :﴿ذَٰلِكَ﴾ تعود إلى ما سبق من ارتدادهم على أدبارهم، وما ترتب عليه من اتباع الشيطان وتسويله .ثم يذكر القرآن السبب القريب لهذا الموقف، وهو قولهم :﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.

والمراد بالذين كرهوا ما نزل الله أولئك الذين أبغضوا الوحي وأعرضوا عنه، ويدخل في ذلك من عادى رسالة الإسلام وناوأها من أهل الكفر والنفاق بحسب ما يقتضيه السياق .ولا ينبغي حصر هذا الوصف في جماعة معينة من غير دليل ثابت.

أما قولهم :﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ فيكشف عن مساومة على الحق؛ فلم يقولوا إنهم سيتركون كل ما هم فيه، وإنما وعدوا بالطاعة في بعض الأمر .وهذا التعبير يكشف أن الانحراف قد يبدأ بالتنازل الجزئي، ثم يتسع حتى يصبح صاحبه تابعًا لمن يعادي الحق.

وليس المقصود أن كل تعاون مع غير المسلمين أو كل اتفاق في شأن دنيوي يعد من هذا الباب؛ فالآية تتحدث عن طاعة الذين يكرهون ما أنزل الله في أمر يتصل بمناوأة الوحي والرسالة، والتواطؤ على ما يخالف حكم الله .والاعتبار هنا بحقيقة العمل ومضمونه، لا بمجرد هوية الطرف الآخر.

ثم يختم بقوله :﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ .و«إسرار «تحتمل جمع سِرّ، وتحتمل المصدر بمعنى إخفائهم ما يتواطؤون عليه .والمعنى أن ما يخفونه من العهود والاتفاقات لا يغيب عن علم الله، وإن ظنوا أن إخفاءه عن المؤمنين يحميهم من انكشاف أمرهم.

وفي الانتقال من ذكر قولهم إلى ذكر علم الله بأسرارهم تهديد بليغ؛ فهم يظنون أن السر يحفظ لهم مصالحهم، بينما يقرر القرآن أن السر نفسه معلوم لله، وأن الحساب لا يتوقف على انكشاف أعمالهم للناس.

٨ .مشهد الوفاة :انكشاف الحقيقة عند مفارقة الدنيا

قال الله تعالى :﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ سورة محمد :الآية ٢٧ .بعد كشف ما يخفونه في الدنيا، ينقل القرآن المشهد إلى لحظة مفارقة الحياة، حيث ينكشف للإنسان ما كان يستره، ويواجه جزاء موقفه من الوحي والحق.

والاستفهام في قوله :﴿فَكَيْفَ﴾ للتهويل والتخويف، أي :فكيف تكون حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وهم على تلك الحال من الإعراض والارتداد والتواطؤ؟

وقوله :﴿تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يدل على قبض الملائكة لأرواحهم عند الموت، وهو من أمور الغيب التي نؤمن بها على ما ورد به النص، دون أن نتكلف وصف الكيفية أو تعيين ما لم يعينه الوحي.

ثم تأتي الصورة الشديدة :﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ .وهذا تصوير للعذاب والإهانة التي يلقاها هؤلاء عند الوفاة، وهو مشهد يقابل ما سبق من تصويرهم ينظرون إلى النبي ﷺ نظر المغشي عليه من الموت خوفًا من القتال.

ففي أول المقطع ظهر خوفهم من الموت الذي قد يواجهونه في سبيل الله، وفي هذا الموضع يواجهون الموت في حال الإذلال والعذاب، بعد أن اختاروا الإعراض عن أمر الله .وبين المشهدين مقابلة مؤثرة :فرار من الموت في موضع الطاعة، ثم مواجهة العذاب عند الموت بسبب المعصية.

ولا يلزم من ذكر ضرب الوجوه والأدبار أن يكون المقصود وصف كيفية مادية مفصلة لا نعلمها، وإنما نثبت ما أخبر الله به، ونقف عند دلالة النص من غير زيادة لا دليل عليها.

وتظهر وظيفة هذه الآية في بناء الحجة؛ فقد كشف الله سرهم في الدنيا، ثم ذكر عاقبتهم عند الوفاة، لينتقل التهديد من علم الله بأعمالهم إلى الجزاء الذي ينتظرهم.

٩ .اتباع ما أسخط الله وإحباط الأعمال

قال الله تعالى :﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ سورة محمد :الآية ٢٨ .تختم هذه المجموعة من الآيات ببيان العلة الجامعة التي تفسر ما سبق من الارتداد والتواطؤ والعذاب؛ وهي أنهم اختاروا اتباع ما يسخط الله، وكرهوا ما يرضيه.

وقوله :﴿ذَٰلِكَ﴾ يشير إلى ما سبق من حالهم وعقوبتهم، أي إن ما أصابهم كان بسبب اختيارهم طريق السخط والإعراض عن الرضوان.

والاتباع هنا أبلغ من مجرد الوقوع في المعصية؛ لأنه يدل على سلوك الطريق والمضي فيه، وتقديمه على غيره .فهم لم يقعوا في المخالفة عن غفلة عارضة فحسب، بل اتبعوا ما يسخط الله، وجعلوا له حظًا من إرادتهم واختيارهم.

وأما قوله :﴿مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ فيشمل ما يبغضه الله من الكفر والنفاق ومناوأة الوحي والصد عن سبيله، وما يتصل بذلك من الأعمال والأقوال .ثم قابله بقوله :﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾، فلم يقتصر على اتباع الباطل، بل كرهوا الحق وما يرضاه الله من الإيمان والطاعة والانقياد.

وهذه المقابلة تكشف عن حقيقة أعمق من مجرد مخالفة الأمر؛ إنها انقلاب في جهة الإرادة، بحيث يحب الإنسان ما يسخط الله ويكره ما يرضيه .ومن هنا كان مرض القلب شديدًا؛ لأن الخلل لم يعد في العمل وحده، بل أصاب المحبة والإرادة والاختيار.

وقوله :﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يبين أثر ذلك في مصير ما قدموه من أعمال .والإحباط هو إبطال أثر العمل وإذهاب ما كان يرجى منه من الثواب والقبول بسبب ما قام بصاحبه من الكفر والردة وما يقتضي ذلك من بطلان العمل.

وهنا ينبغي تحرير المسألة العقدية :فإحباط الأعمال في سياق الآية متعلق بهؤلاء الذين اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وقد جاء وصفهم بالارتداد بعد ظهور الهدى، فلا يصح أن يُجعل هذا النص دليلًا على أن كل معصية تحبط جميع أعمال المسلم .فالقرآن يفرق بين الكفر والردة، وبين المعاصي التي لا تبلغ هذا الحد، ولكل باب أحكامه.

وقد قرر القرآن في مواضع أخرى أن من مات على الكفر حبط عمله، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (البقرة :٢١٧) .وهذا يوضح خطورة الارتداد، وأن العمل لا ينفصل عن أصل الإيمان الذي تقوم عليه صحته وقبوله.

ومن جهة النظم، جاءت الآية خاتمة لما سبق من وصف المنافقين؛ إذ بدأت المجموعة بكشف ترددهم أمام أمر القتال، ثم بينت ما يترتب على التولي من فساد وقطيعة، ثم كشفت عن إغلاق القلوب، ثم ذكرت الارتداد والتواطؤ السري، ثم صورت العذاب عند الوفاة، وأخيرًا جمعت السبب في اتباع السخط وكراهة الرضوان.

وبذلك لا يبقى العذاب مشهدًا منفصلًا عن مقدماته، بل يظهر باعتباره نتيجة لمسار اختياري بدأ بمرض القلب، ثم تحول إلى نفور من التكليف، ثم إلى إعراض عن القرآن، ثم إلى الارتداد والتواطؤ على مخالفة الوحي.

ثالثًا :المسائل التفسيرية والتحريرات العلمية في المقطع

١ .حقيقة مرض القلب وعلاقته بالنفاق

مرض القلب في هذه الآيات ليس وصفًا لحالة نفسية عارضة، وإنما هو خلل في أصل الاستجابة للحق .وقد يتجلى في الشك، أو النفاق، أو كراهية التكليف، أو اتباع الهوى، أو الاستكبار عن الانقياد.

والسياق يربط بين هذا المرض وبين المواقف العملية؛ فالمرض لم يبق وصفًا باطنيًا، بل ظهر أثره في النفور من القتال، ثم في التولي، ثم في الإعراض عن تدبر القرآن.

ومن هنا يتبين أن القرآن لا يفصل بين فساد الاعتقاد وفساد العمل فصلًا مطلقًا؛ ففساد الباطن يظهر أثره في السلوك، كما أن الإصرار على السلوك المنحرف يزيد القلب مرضًا.

٢ .هل الأمر بالقتال في الآية خاص بواقعة معينة؟

لا تتضمن الآية تعيين غزوة بعينها أو حادثة خاصة على وجه يوجب الجزم بها .والأصل حملها على سياق نزول أحكام القتال في المرحلة المدنية، حين كان المنافقون يظهرون الموافقة على الطاعة، ثم ينكشف ترددهم عند نزول التكليف.

وقد أشار ابن عاشور إلى أن نزول السورة في المدينة وظهور النفاق فيها يجعلان هذا الموقف من أبرز مظاهر التمييز بين المؤمنين والمنافقين عند الدعوة إلى الجهاد) .٢(

ولا ينبغي أن تُجعل الآية دليلًا على أن كل من خاف القتال أو شق عليه تكليفه منافق؛ فالخوف الطبيعي من الموت أمر جبلي، وإنما الذم متعلق بالنفاق والإعراض عن أمر الله وعدم الصدق في الإيمان.

٣ .ضابط فهم الارتداد في الآية الخامسة والعشرين

الارتداد في قوله :﴿ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ يحمل على الرجوع عن الهدى بعد ظهوره، وقد يتناول الردة عن الدين بحسب حال المعنيين به.

والأهم في فهم الآية هو القيد الذي ذكره الله :﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾؛ إذ يميز هذا القيد بين من لم يبلغه الحق، ومن بلغه فلم يفهمه، وبين من عرفه ثم أعرض عنه.

وهذا لا يسوغ الحكم على الأعيان بالردة بمجرد الظنون أو المواقف المحتملة، فالحكم على المعين له شروط وموانع، وتحرير مناطه من اختصاص أهل العلم والقضاء الشرعي بحسب الأحوال.

٤ .دلالة إحباط الأعمال

الإحباط في هذه الآية ليس حكمًا عامًا على كل من وقع في معصية، وإنما جاء في سياق الحديث عن الارتداد واتباع ما يسخط الله وكراهة رضوانه.

والتمييز بين إحباط العمل بالكفر والردة وبين نقصان ثواب العمل بالمعصية من المسائل المهمة في باب الاعتقاد؛ فلا يجوز تسوية الذنوب كلها في أحكامها، ولا حمل نصوص الوعيد على معنى واحد دون مراعاة سياقاتها.

رابعًا :الدلالة النظمية للمقطع وصلته بمقصد السورة

يتضح من اتصال الآيات أن المقطع ليس مجرد حديث عن المنافقين عند نزول القتال، وإنما هو كشف متدرج لحقيقة الموقف من الوحي.

ففي الآيات الأولى ظهر التفاوت بين المؤمنين والمنافقين عند نزول السورة التي يذكر فيها القتال .ثم كشف القرآن أن التردد عند التكليف ليس مجرد ضعف عابر، بل قد يتصل بالتولي عن أمر الله، وما ينشأ عنه من فساد وقطيعة.

ثم انتقل السياق إلى أصل هذا الخلل، وهو القلب الذي لم يعد ينتفع بالوحي؛ فجاء الاستفهام عن تدبر القرآن والأقفال التي على القلوب .وبعد ذلك عرض صورة أشد، وهي الارتداد بعد ظهور الهدى، مقرونًا بالتسويل الشيطاني والتواطؤ مع الذين كرهوا ما أنزل الله.

ثم ختم المقطع بمشهد الوفاة وإحباط الأعمال، ليقرر أن الموقف من الوحي ليس أمرًا عابرًا، بل تترتب عليه عواقب أخروية عظيمة.

ويظهر هنا اتصال هذا المقطع بمقصد سورة محمد؛ فالسورة من أولها تقيم التمييز بين فريق آمن واتبع الحق، وفريق كفر وصد عن سبيل الله، وتكشف أن حقيقة الانتماء إلى الإيمان تظهر في اتباع الوحي والاستجابة له، لا في مجرد الانتساب الظاهر.

كما أن المقطع يمهد لما بعده؛ إذ سيكشف السياق في الآيات التالية ما تخفيه القلوب من الأضغان، ثم يبين أن الابتلاء يكشف المجاهدين والصابرين، وأن الله يعلم أعمال العباد ويبلو أخبارهم .فكأن الآيات من العشرين إلى الثامنة والعشرين تعرض نموذج الانحراف، ثم يأتي ما بعدها ليوسع دائرة الكشف عن البواطن وتمييز الصادق من غيره.

خامسًا :المراجع والإحالات

١. الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة محمد، الآية الحادية والعشرين .

٢. ابن عاشور، *التحرير والتنوير*، تفسير سورة محمد، الآية العشرون، في بيان سياق نزول السورة وظهور النفاق ومناسبة ذكر القتال .

المقطع السادس :كشف الأضغان وابتلاء الصدق، والنهي عن الوهن، وبيان حقيقة الدنيا وواجب الإنفاق

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾.سورة محمد :الآيات ٢٩-٣٨ .

التفسير والتحرير

أولًا :كشف ما استتر في القلوب وظهور حقيقة النفاق

قال الله تعالى :﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٢٩ .يأتي هذا الاستفهام عقب الحديث عن الذين ارتدوا على أدبارهم، واتبعوا ما أسخط الله، وكرهوا رضوانه، فأحبط أعمالهم؛ ليكشف أن الانحراف الظاهر وراءه في كثير من الأحوال فساد مستقر في الباطن، وأن ما يضمره المنافقون من العداوة والبغضاء لا يمكن أن يظل مستورًا إلى غير نهاية.

والاستفهام بـ«أم «هنا إنكاري، يتضمن توبيخ أصحاب القلوب المريضة على ظنهم أن ما يخفونه من الأضغان لن يظهره الله .والمعنى :أظن هؤلاء أن الله لن يكشف ما انطوت عليه نفوسهم من الحقد والعداوة للمؤمنين، وأنهم يستطيعون إخفاء حقيقة مواقفهم مع استمرار مخالفتهم لأمر الله ورسوله؟

والمرض المذكور في القلب هو مرض النفاق وما يتصل به من الشك والعداوة وفساد الاعتقاد .وليس المراد مرض الأبدان، وإنما اختير القلب لأنه موضع الاعتقاد والإرادة والقصد، فإذا فسد ما فيه انعكس فساده على القول والعمل.

أما »الأضغان «فهي جمع ضِغن، وهو الحقد والعداوة المستكنة في النفس .وهي أبلغ من مجرد المخالفة الظاهرة؛ لأن المخالفة قد تكون عن اجتهاد أو شبهة أو ضعف، أما الضغن فيتضمن انطواء النفس على كراهية وعداوة لا تريد إظهارها.

وتتكرر مادة الأضغان في هذا المقطع؛ إذ وردت في الآية التاسعة والعشرين، ثم عادت في الآية السابعة والثلاثين .وبين الموضعين مناسبة ظاهرة :ففي الأول يكشف الله ما يضمره المنافقون من عداوة، وفي الثاني يبين أن استثقال الإنفاق إذا أُلزموا به واستقصي منهم قد يكشف ما في النفوس من شح وضيق واعتراض.

فالأضغان ليست مقصورة على عداوة المؤمنين، بل يكشف السياق عن صلة فساد الباطن بالبخل والإعراض عن مقتضيات الإيمان.

ويحتمل التعبير إخراج ما استتر في الصدور إلى عالم الظهور، سواء أكان ذلك بانكشافه في الأقوال والأفعال، أم بما يجريه الله من أحداث تكشف حقيقة أصحاب النفوس المريضة . وليس في الآية ما يوجب حصر الكشف في صورة واحدة.

قال الله تعالى :﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٣٠ .ينتقل الخطاب هنا من تقرير أن الأضغان ستظهر إلى بيان أن الله قادر على إظهار أصحابها لرسوله ﷺ إظهارًا مباشرًا، بحيث يعرفهم بأعيانهم وعلاماتهم.

وقوله :﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ يدل على أن إظهارهم بأعيانهم كان ممكنًا بمشيئة الله، وأن عدم إظهارهم جميعًا بهذه الصورة ليس لعجز عن كشفهم، وإنما لحكمة اقتضاها التدبير الإلهي.

وقوله :﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي لعرفتهم بعلاماتهم الظاهرة التي يجعلها الله دالة عليهم . والسيما العلامة التي يُعرف بها الشيء، وقد تكون في الهيئة أو الوجه أو غيرهما .ولا يلزم من

ذلك أن تكون للمنافقين علامة حسية واحدة مطردة يمكن للناس أن يحكموا بها على الأعيان؛ فالآية تتحدث عن إظهار إلهي مخصوص، لا عن وضع قاعدة عامة للتعرف على سرائر الناس.

ثم قال :﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، وهذا انتقال من المعرفة بالعلامة الظاهرة إلى المعرفة بما يكشفه الكلام من مقاصد المتكلمين.

واللحن هنا ليس اللحن الاصطلاحي الذي يراد به الخطأ في الإعراب أو مخالفة قواعد العربية، وإنما المراد فحوى القول ومعناه الذي يميل إليه، وما يظهر من خلال عبارته من مقاصد صاحبه ومراده.

فقد يتكلم الإنسان بكلام يحتمل في ظاهره معنى مقبولًا، لكن طريقة عرضه، وما يتضمنه من تلميح أو تعريض أو تهوين لأمر الدين، تكشف عن حقيقة موقفه لمن رزقه الله فقه الخطاب ومعرفة قرائنه.

وهذا من دقائق التعبير القرآني؛ إذ لم يجعل التعرف على المنافقين متوقفًا على التصريح بالكفر، بل أشار إلى أن فساد الاعتقاد قد يظهر في اختيار الألفاظ وطريقة التعبير والمواقف المتكررة.

وقد فسر الطبري لحن القول بمعنى القول وفحواه، وذكر في ذلك آثارًا عن السلف في التعرف على المنافقين بما يصدر عنهم من كلام يدل على مقاصدهم .

غير أن قوله :﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ يعيد الأمر إلى أصله؛ فمهما خفي من السرائر، ومهما احتمل الكلام من وجوه، فإن علم الله محيط بالأعمال والنيات، ولا يتوقف علمه على ظهور العلامات أو انكشاف الدلالات للناس.

والالتفات إلى عموم المخاطبين في قوله :﴿أَعْمَالَكُمْ﴾ بعد الحديث عن المنافقين يوسع دائرة المراقبة، فلا يظن المؤمن أن كشف المنافقين هو الغاية الوحيدة من الكلام، بل الجميع داخلون في علم الله ومحاسبته.

ومن هنا ينبغي التفريق بين أمرين :علم الله بحقيقة البواطن، وهو علم كامل لا يعتريه نقص، ومعرفة البشر بما يظهر من أقوال الناس وأفعالهم، وهي معرفة محدودة بالقرائن والبينات . فلا يجوز أن يُجعل الاشتباه في أسلوب شخص أو عبارة قالها مسوغًا للحكم على باطنه بالنفاق.

ثانيًا :الابتلاء الإلهي وإظهار حقيقة المجاهدين والصابرين

قال الله تعالى :﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٣١ .لما ذكر سبحانه كشف أضغان المنافقين، انتقل إلى بيان سنة أخرى في تمييز أهل الإيمان، وهي الابتلاء الذي تظهر به حقيقة الأعمال، وينكشف به صدق الثبات عند ورود التكاليف والمشاق.

واللام في ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ لام التوكيد، والنون المشددة تؤكد وقوع الابتلاء، فلا يترك الله عباده دون امتحان يظهر به أثر ما في قلوبهم على أعمالهم.

والابتلاء في أصله الاختبار، ويكون بما يوافق النفس وبما يخالفها، وبالرخاء كما يكون بالشدة، غير أن السياق هنا يخص بالذكر الجهاد والصبر؛ لأنهما من أعظم المواطن التي يظهر فيها صدق الإيمان وثبات صاحبه.

وقوله :﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ لا يعني حدوث علم لله تعالى بعد جهل، تعالى الله عن ذلك؛ فهو سبحانه عالم بما كان وما يكون قبل وقوعه، وإنما المراد أن يظهر المعلوم في الخارج، ويتحقق وقوعه في عالم العمل، فيتميز المجاهد بالفعل من المتخلف عنه، والصابر عند الشدة ممن لا يثبت.

وهذا من الأساليب القرآنية التي يُعبّر فيها عن ظهور المعلوم ووقوعه بلفظ العلم؛ لأن العلم الإلهي متعلق بالأشياء على ما تكون عليه في واقعها، والابتلاء هو الذي يُظهر الأعمال التي تعلق بها العلم الأزلي.

وقد حرر الطبري هذا المعنى عند تفسير الآية، فربط الابتلاء بظهور أهل الجهاد والصبر وتمييز الصادق من غيره .

وخص الجهاد بالذكر لأنه بذل للنفس والجهد في نصرة الدين، وخص الصبر لأنه القوة الباطنة التي تحفظ صاحبها على طريق الطاعة، فلا يقتصر على لحظة الحماسة، بل يثبت عند طول الطريق وشدة التكليف.

فليس كل من أظهر الرغبة في نصرة الدين يكون من أهل الصبر والثبات، وإنما تظهر حقيقة ذلك حين تتعارض مقتضيات الطاعة مع رغبات النفس ومخاوفها.

ثم قال :﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾، أي نختبر أحوالكم وأعمالكم التي يُخبر بها عنكم، ونظهر حقيقة ما تصدرون عنه من مواقف.

والأخبار هنا ليست مجرد الأنباء التي ينقلها الناس، بل تدخل فيها أحوال العباد وسيرتهم وأعمالهم التي تكشف عن حقيقتهم.

والصلة بين هذه الآية وما قبلها وثيقة؛ فالله يكشف أضغان المنافقين، ويبتلي المؤمنين، فيظهر حقيقة الفريقين :هؤلاء بما تنكشف به مقاصدهم، وأولئك بما يظهر من جهادهم وصبرهم.

وهكذا لا يكون الابتلاء مجرد مشقة عارضة، بل هو من سنن التمييز بين الدعاوى والحقائق، وبين الإيمان الذي استقر في القلب والإيمان الذي لم يتجاوز حدود القول.

ثالثًا :عجز الكافرين عن إبطال الحق وحقيقة إحباط الأعمال

قال الله تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٣٢ .بعد تقرير سنة الابتلاء وتمييز المجاهدين والصابرين، يعود السياق إلى الفريق المقابل، فيبين أن كفر الكافرين وصدهم عن سبيل الله ومشاقتهم للرسول لا يترتب عليه نقص في ملك الله ولا إبطال لدينه، وإنما تعود عاقبة ذلك عليهم.

وقد جمع سبحانه في وصفهم بين ثلاثة أمور :الكفر، والصد عن سبيل الله، ومشاقة الرسول.

فالكفر فساد في أصل الاعتقاد، والصد عن سبيل الله تجاوز لهذا الفساد إلى منع الآخرين من اتباع الحق، أما مشاقة الرسول فهي اتخاذ موقف العداوة والمخالفة والمنازعة لرسول الله ﷺ، حتى يكون المرء في شق، والرسول في شق آخر.

والتدرج في هذه الأوصاف يكشف عن انتقال الانحراف من فساد الاعتقاد إلى مقاومة الحق ومحاربة حملته.

وقوله :﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ قيد مهم؛ لأنه يبرز شناعة موقف من عرف الحق وظهرت له دلائله ثم اختار مخالفته .وليس مجرد عدم الوصول إلى الحق مساويًا لمعرفته ثم الإعراض عنه؛ فالآية تذم موقفًا اقترن فيه الكفر والصد والمشاقة بظهور الهدى وقيام الحجة.

وقوله :﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ نفي قاطع لتوهم أن مقاومة الكافرين للدعوة تنال من سلطان الله أو تنقص من ملكه .فالله غني عن خلقه، وإنما أمرهم بالإيمان والطاعة لمصلحتهم، والكفر لا يزيد ملكه ولا ينقصه.

ثم قال :﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾، والإحباط إبطال أثر العمل وإذهاب ما كان يُرجى منه من الثواب والقبول .وقد تقدم ذكر إحباط أعمال الكافرين في مطلع السورة، حيث قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٨.

ثم جاء في الآية التاسعة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾، سورة محمد : الآية ٩.

وتتكرر القضية هنا لتؤكد أن العمل لا يستقل عن أصل الاعتقاد والموقف من الوحي؛ فالعمل الذي لا يقوم على الإيمان بالله والإذعان لرسوله لا يحقق لصاحبه النجاة الأخروية.

وفي هذا السياق يظهر ارتباط الإحباط بالصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول، لا بمجرد الوقوع في كل مخالفة جزئية؛ ولذلك يجب التمييز بين الكفر الذي يحبط العمل وبين المعصية التي لا تخرج صاحبها من الإسلام بمجردها.

رابعًا :الأمر بالطاعة والتحذير من إبطال الأعمال

قال الله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٣٣ .لما ذكر سبحانه إحباط أعمال الكافرين، انتقل إلى خطاب المؤمنين بتحذيرهم من الأسباب التي تفضي إلى ضياع أعمالهم، فليس المؤمن مأمونًا من الانحراف لمجرد دخوله في الإيمان، وإنما عليه أن يحفظ إيمانه بالطاعة والاستقامة.

وقد أعاد فعل الأمر في قوله :﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، ولم يكتف بذكر الطاعة مرة واحدة؛ لما في ذلك من تأكيد استقلال الأمر بطاعة الرسول ﷺ ووجوب اتباعه.

فطاعة الله تكون بامتثال كتابه، وطاعة الرسول تكون باتباع ما جاء به من الوحي والبيان والتشريع الثابت عنه .ولا تتحقق طاعة الله مع الإعراض عن رسوله، كما لا تتحقق طاعة الرسول في مخالفة أمر الله.

وهذا المعنى من أصول الشريعة؛ فالرسول ﷺ مبلغ عن الله ومبين لمراده، وطاعته من طاعة الله، كما قال سبحانه:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، سورة النساء :الآية ٨٠.

ثم قال :﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، وهو نهي يتناول المحافظة على الأعمال الصالحة وعدم إفسادها بما يناقضها أو يذهب بأجرها.

وقد تعددت عبارات المفسرين في تعيين ما يدخل في الإبطال؛ فقيل :المراد النهي عن الرياء والمن والأذى، وقيل :المراد النهي عن الردة والكفر، وقيل :يدخل فيه جميع ما يفسد العمل أو يذهب بثوابه.

والذي يظهر أن عموم العبارة يحتمل هذه المعاني بحسب الأدلة والسياقات، ولا موجب لقصرها على صورة واحدة.

غير أن مجيء الآية عقب قوله :﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾، ثم تلاوتها بقوله :﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، يجعل التحذير من الكفر والارتداد في مقدمة ما يدخل في معنى إبطال الأعمال.

ولا يصح أن يُستدل بهذه الآية وحدها على أن كل معصية تمحو جميع أعمال الإنسان، أو أن كل مخالفة توجب بطلان العمل السابق؛ فهذا تعميم لا يدل عليه السياق، وتحتاج المسائل المتعلقة بإحباط الأعمال إلى جمع النصوص الواردة في الباب.

ومن دقائق النظم أن الخطاب انتقل من الغيبة في وصف الكافرين إلى النداء المباشر للمؤمنين؛ فكأن السياق يقول لهم :قد علمتم عاقبة من أعرض عن الوحي، فاحفظوا أنتم إيمانكم بالطاعة، ولا تسلكوا طريقًا يفضي بكم إلى ما حذر الله منه.

خامسًا :الموت على الكفر وعاقبة الإعراض عن سبيل الله

قال الله تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٣٤ .يعود السياق إلى وصف الكافرين، لكنه يضيف قيدًا حاسمًا لم يرد في الآية السابقة، وهو الموت على الكفر.

فليس الحديث هنا عن مجرد وقوع الإنسان في الكفر في مرحلة من حياته، وإنما عن الذين استمروا عليه حتى انتهت حياتهم وهم مصرون عليه.

وقوله :﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يبين أن العبرة بالخاتمة التي يلقى العبد الله عليها .فمن تاب من الكفر وآمن قبل موته لم يدخل في هذا الوعيد من جهة بقائه على الكفر؛ لأن التوبة تفتح باب الرجوع إلى الله، كما قال سبحانه:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، سورة الأنفال :الآية ٣٨.

أما من مات على الكفر، فقد انقطع زمن التكليف والعمل، واستحق الوعيد المذكور.

والفاء في ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ تفيد ترتب الحكم على الوصف المذكور، والنفي بـ«لن «يفيد تأكيد امتناع المغفرة لهم في هذا الحال، أي حال الموت على الكفر.

وهذا من النصوص المحكمة في أن الموت على الكفر مانع من المغفرة والنجاة، وهو لا يتعارض مع سعة مغفرة الله للتائبين، بل يميز بين من رجع إلى الله قبل الموت ومن لقيه مصرًا على الكفر.

وقد أعاد القرآن هنا وصف الصد عن سبيل الله؛ لأن الكافر في هذا السياق لم يقف عند فساد نفسه، بل أضاف إليه منع الآخرين من الهدى، فاجتمع في حقه فساد الاعتقاد والإفساد في الأرض ومقاومة الرسالة.

سادسًا :النهي عن الوهن والدعوة إلى السلم في حال القدرة

قال الله تعالى :﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٣٥ .بعد بيان عاقبة الكفر والصد عن سبيل الله، ينتقل السياق إلى خطاب المؤمنين، فينهى عن الوهن الذي قد يضعف إرادتهم في مواجهة أعدائهم، ويجعلهم يستسلمون قبل استيفاء أسباب القوة والقيام بما أوجبه الله عليهم.

والفاء في ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ تفريع على ما سبق من تقرير خذلان الكافرين وإحباط أعمالهم، ومن بيان أن الله مع المؤمنين، وأنه لن يضيع أعمالهم.

والوهن هو الضعف، وقد يكون ضعفًا في البدن، أو في الرأي، أو في الإرادة والعزيمة . والمراد هنا ضعف العزيمة الذي يحمل على التراجع عن واجب المواجهة، أو التماس الدعة على حساب الحق.

ثم عطف عليه قوله :﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾، أي لا تجعلوا الوهن سببًا في المبادرة إلى طلب المسالمة من عدوكم في حال كونكم أهل قوة وظهور، بحيث يكون طلب السلم ناشئًا عن الضعف والخوف لا عن مصلحة معتبرة.

والسَّلْم هو الصلح والمسالمة وترك القتال، وقد قرئت الكلمة في القراءات المتواترة بوجوهها المعروفة في هذا الموضع، ولا يترتب على اختلافها هنا اختلاف جوهري في أصل المعنى.

وهنا ينبغي تحرير مسألة مهمة :هل تنهى الآية عن الصلح مع الأعداء مطلقًا؟

الجواب :لا يدل السياق على ذلك، وإنما النهي متعلق بالدعوة إلى السلم حال العلو والقدرة، حين يكون طلبه ناشئًا عن الوهن والتراجع دون مصلحة شرعية معتبرة.

ويدل على أن الصلح ليس ممنوعًا في ذاته قول الله تعالى:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، سورة الأنفال :الآية ٦١.

فالآيتان ليستا متعارضتين، لأن سورة محمد تنهى عن المبادرة إلى المسالمة عن ضعف في حال العلو، بينما سورة الأنفال تأمر بقبول السلم إذا جنح إليه العدو، وكان في ذلك مصلحة معتبرة.

وهذا يقتضي التفريق بين الصلح المشروع الذي يقوم على تقدير المصالح والمفاسد، وبين الاستسلام الناشئ عن الوهن والخوف وإهدار الحقوق، وقد فصل ابن عاشور في هذه الدلالة، وربط النهي عن الوهن والدعوة إلى السلم بظروف القوة التي ينبغي للمؤمنين ألا يتخلوا عنها لمجرد طلب الدعة .

ثم قال سبحانه :﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾، وهذه الجملة حالية، أي لا تضعفوا ولا تبادروا إلى طلب السلم والحال أنكم الأعلون.

والعلو هنا يتناول علو الحجة والحق، وما يمنحه الله للمؤمنين من قوة وعزة ونصرة، بحسب ما يقتضيه السياق .وليس المراد ضمان التفوق العسكري في كل واقعة أو انتفاء كل هزيمة عارضة؛ فإن القرآن نفسه يذكر الابتلاء والهزيمة والنصر بحسب السنن الإلهية.

وإنما المقصود ألا يتخذ المؤمنون الخوف أو المشقة سببًا للتخلي عن واجبهم، وهم أهل الحق الذين وعدهم الله بالنصر والتأييد إذا حققوا شروط الإيمان والطاعة.

ثم قال :﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾، وهذه معية تقتضي النصرة والتأييد والحفظ، وهي معية خاصة بالمؤمنين بحسب ما يقتضيه المقام، وليست مجرد المعية العامة التي تشمل الخلق جميعًا بعلم الله وإحاطته.

ثم ختم بقوله :﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، أي لن ينقصكم ثواب أعمالكم ولن يضيعها.

وأصل »يتركم «من الوتر، وهو النقص، والمعنى أن الله لا يضيع ما قدمتموه من طاعة وجهاد وصبر، بل يجازيكم عليه.

وفي هذا الوعد ما يزيل أحد أعظم أسباب الوهن، وهو خوف ضياع الجهد والتضحية؛ فالمؤمن قد لا يرى ثمرة عمله في الدنيا، وقد يبتلى في نفسه وماله، لكن ذلك لا يعني أن عمله ذهب هباءً، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة.

وهكذا يجمع السياق بين الأمر بالصمود، والوعد بالمعية، وضمان الجزاء؛ فالثبات ليس اندفاعًا مجردًا، وإنما هو ثقة بالله واستناد إلى وعده.

سابعًا :حقيقة الحياة الدنيا وعلاقتها بالتكليف والإنفاق

قال الله تعالى :﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٣٦ .لما أمر الله المؤمنين بالثبات، ووعدهم بأنه لن ينقصهم أجور أعمالهم، كشف لهم عن حقيقة الحياة التي قد تحمل الإنسان على الوهن والتراجع، وهي أن الدنيا مهما عظمت في أعين أصحابها فإنها ليست دار القرار، وإنما هي دار عمل وابتلاء، وسرعان ما تنقضي.

وقوله :﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يفيد القصر، أي إن حقيقة الحياة الدنيا من حيث كونها دارًا مؤقتة تنتهي بالموت، أنها لعب ولهو إذا قورنت بالغاية الباقية التي خلق الإنسان لها.

واللعب ما لا يقصد به غرض ثابت، أو ما يشغل الإنسان بما لا يعود عليه بالنفع الدائم، واللهو ما يلهيه عما هو أهم منه .واجتماعهما يصور حال من جعل الدنيا غايته، فاشتغل بزخارفها وشهواتها، وغفل عن الآخرة وما أعد الله فيها.

وليس المراد أن كل ما في الدنيا من عمل ومعاش وزواج وتجارة وعمران لعب ولهو مذموم؛ فالقرآن نفسه يأمر بالسعي والعمل والإصلاح، وإنما المراد ذم اتخاذ الحياة الدنيا غاية مستقلة عن الآخرة، بحيث تستغرق الشهوات القلب وتصرفه عن الطاعة.

وقد جاء هذا المعنى في مواضع أخرى، منها قوله سبحانه:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، سورة الأنعام :الآية ٣٢.

فالمقارنة هنا بين حياة تنقضي ودار تبقى، وليس بين العمل في الدنيا وتركه، وإنما بين أن تكون الدنيا وسيلة إلى رضوان الله، أو أن تتحول إلى غاية تستعبد الإنسان.

ثم قال سبحانه :﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ .بعد أن بيّن حقيقة الدنيا، دل على الطريق الذي يجعلها ذات قيمة في حياة الإنسان، وهو الإيمان والتقوى.

والإيمان أصل العمل، والتقوى ثمرة هذا الإيمان في السلوك؛ إذ يحمل صاحبه على امتثال أمر الله واجتناب نهيه .وجاء الجزاء بقوله :﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، ولم يقل مجرد يعطيكم أموالكم أو منافعكم، لأن المقصود هو الجزاء الذي يبقى أثره ولا ينقطع بانقطاع الحياة الدنيا.

وفي ذلك نقل لمعيار النظر من المكسب العاجل إلى الجزاء الباقي؛ فالإنسان قد يظن أن بذل المال في سبيل الله خسارة، وأن ما يملكه إذا أنفقه نقصت منزلته، لكن القرآن يعيد بناء هذا التصور، فيجعل الأجر الحقيقي فيما يدخره العبد عند ربه.

ثم قال :﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾، وهذا من لطف الله بعباده؛ فهو سبحانه لا يحتاج إلى أموالهم، وإنما يأمرهم بالإنفاق لمصلحتهم، ولما فيه من إقامة الدين وإعانة المحتاجين وتقوية جماعة المؤمنين.

والنفي هنا ليس معناه أن الله لا يأمر بشيء من المال مطلقًا؛ فقد فرض الزكاة، وأوجب النفقة في مواضعها، وشرع وجوهًا أخرى من البذل .وإنما المراد أنه لا يطالبهم باستئصال أموالهم أو استغراقها كلها، ولا يجعل التكليف قائمًا على إفقارهم.

وهذا المعنى يتضح أكثر بالآية التالية.

قال الله تعالى :﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٣٧ .

يبين الله سبحانه هنا الحكمة من عدم مطالبته عباده باستغراق أموالهم؛ إذ لو استقصى منهم المال كله، وألح عليهم في طلبه، لشق ذلك عليهم، وربما حملهم على البخل والامتناع، وأظهر ما في صدورهم من الضغائن.

وقوله :﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ الضمير في »يسألكموها «عائد إلى الأموال، أي إن يسألكم أموالكم جميعها أو يستقصيها منكم.

وقوله :﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ من الإحفاء، وهو المبالغة في الطلب والاستقصاء والإلحاح حتى يبلغ المطلوب غايته.

والمعنى :لو طلب منكم جميع أموالكم، وألح عليكم في إخراجها، لبخلتم بها، ولظهر ما تخفونه من ضيق النفس وشدة التعلق بالمال.

وهنا تظهر دقة التعبير في قوله :﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾؛ فقد سبق أن تحدثت السورة عن الأضغان التي تستقر في قلوب المنافقين، ثم أعادت ذكرها هنا في سياق الحديث عن المال والإنفاق.

والصلة بين الموضعين أن فساد الباطن قد يظهر في مقاومة الحق والإعراض عن الوحي، وقد يظهر أيضًا في الشح والتضجر حين يتطلب الإيمان بذل المال.

وليس المقصود أن كل من شق عليه الإنفاق أو خاف على ماله منافق؛ فالإنسان مجبول على محبة المال، وقد يتفاوت الناس في طاقتهم وقدرتهم، وإنما المذموم أن يتحول التعلق بالمال إلى مانع من امتثال أمر الله، أو إلى اعتراض على شرعه، أو إلى بخل يمنع الحقوق الواجبة.

ومن هنا كان في الآية تربية على الاعتدال في التكليف؛ فالشريعة لا تقوم على استنزاف أموال الناس وإهلاكهم، ولا على تركهم لشح النفوس، وإنما تقوم على العدل في الحقوق، والتكافل في الواجبات، والتطوع في وجوه البر بحسب الطاقة.

وهذا من وجوه رحمة الله بعباده؛ إذ شرع لهم من الإنفاق ما يصلح أحوالهم ويقيم مصالحهم، ولم يكلفهم ما يؤدي إلى استئصال أموالهم وإفساد أحوالهم.

ثامنًا :الإنفاق في سبيل الله وافتقار العباد إلى ربهم

قال الله تعالى :﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٣٨.

بعد أن قرر الله سبحانه أنه لا يستأصل أموال عباده ولا يستقصيها منهم، كشف حقيقة موقفهم من الإنفاق المشروع، فقال :﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وهذا الأسلوب فيه تنبيه ومواجهة؛ فكأن الخطاب يقول :أنتم الذين تعرفون أن الله لم يطلب منكم استئصال أموالكم، وإنما يدعوكم إلى الإنفاق في سبيله، ومع ذلك يوجد منكم من يبخل ويمسك.

وفي قوله :﴿تُدْعَوْنَ﴾ إشارة إلى أن الإنفاق ليس مجرد انتزاع للمال من صاحبه، بل هو دعوة إلى الخير، وإلى المشاركة في إقامة مصالح الدين والأمة، وإلى تقديم ما ينفع الإنسان في دنياه وآخرته.

وقوله :﴿لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يشمل وجوه الإنفاق المشروعة التي تحقق نصرة الدين وإقامة مصالح المسلمين، ويدخل فيه الإنفاق في الجهاد وسائر أبواب البر بحسب ما يقتضيه السياق والأدلة.

ولا يصح قصر الآية على نوع واحد من الإنفاق؛ وإن كان سياق السورة، بما تضمنه من ذكر القتال والثبات، يجعل الإنفاق في نصرة الدين من أبرز ما يدخل في معناها.

ثم قال :﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾، أي يمتنع عن البذل الذي دعي إليه، ويؤثر إمساك المال على الاستجابة لأمر الله.

والبخل ليس مجرد قلة المال، فقد يكون الإنسان قليل المال كريم النفس، وقد يكون كثير المال شديد الإمساك؛ فالمذموم هو منع الحق مع القدرة عليه.

ثم جاءت قاعدة جامعة في قوله :﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾.

فلم يقل :يبخل عن الله، لأن الله لا يحتاج إلى شيء من عباده، ولم يقل :يبخل عن الناس فحسب، بل رد أثر البخل إلى صاحبه؛ فهو الذي يحرم نفسه الأجر والثواب، ويحرمها بركة الإنفاق، ويجعل المال الذي كان يمكن أن يكون سببًا لنجاته سببًا لافتتانه.

والتعبير بـ«عن نفسه «يبرز أن ضرر البخل يعود على البخيل، حتى وإن ظن أنه يحفظ ماله ويزيد ثروته؛ فإن المال الذي يمسكه عن الحق لا يضمن له النجاة، وإنما النجاة فيما قدمه بين يدي الله.

ثم قال سبحانه :﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾.

وهذه الجملة تعيد القضية إلى أصلها العقدي؛ فالله غني بذاته عن العالمين، لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين، والعباد هم المحتاجون إليه في وجودهم ورزقهم وهدايتهم ومغفرته.

والتعريف في ﴿الْغَنِيُّ﴾ و﴿الْفُقَرَاءُ﴾ يفيد تقرير هذه الحقيقة على وجهها الثابت؛ فغنى الله كامل مطلق، وفقر العباد إليه لازم لا ينفك عنهم.

ومن هنا يظهر وجه الإنفاق :ليس المال الذي يخرجه العبد زيادة في ملك الله، بل هو طاعة تعود منفعتها إلى العبد نفسه، وإسهام في إقامة المصالح التي أمر الله بها.

ثم ختمت السورة بقوله :﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

وهذا ختام شديد الوقع؛ لأنه ينقل المخاطبين من مجرد التحذير من البخل إلى بيان أنهم ليسوا ضرورة لاستمرار الدين، وأن الله غني عنهم، وأنه قادر على أن يستبدل بهم قومًا آخرين يقومون بما أعرضوا عنه.

والتولي هنا يحتمل الإعراض عن الطاعة والإنفاق ونصرة الدين، والسياق يجمع هذه المعاني؛ فقد انتهت السورة إلى الدعوة إلى الإنفاق، بعد الحديث عن الجهاد والثبات، فكان التولي شاملًا للإعراض عن مقتضيات هذه الدعوة.

أما قوله :﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، فهو تهديد للمخاطبين بأن الدين لا يتوقف عليهم، وأن من أعرض عن القيام بواجبه أقام الله غيره مقامه.

وقد اختلف المفسرون في تعيين القوم الذين يقع بهم الاستبدال؛ فقيل :هم أهل فارس، وقيل :غيرهم من الأمم الذين ينصرون الدين ويقومون بأمر الله.

وقد وردت في هذا الباب آثار وأحاديث في فضل قوم من غير العرب، لكن لا ينبغي الجزم بتعيين قوم مخصوصين في الآية لمجرد ورود قول تفسيري أو رواية لا يتوقف عليها أصل المعنى.

والأظهر أن الآية عامة في كل قوم يختارهم الله للقيام بما أعرض عنه غيرهم، ولا يلزم من ذلك تعيين أمة بعينها؛ إذ المقصود تهديد المخاطبين بإمكان الاستبدال، لا تعريفهم باسم المستبدل بهم.

ثم قال :﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾، أي لا يكون القوم الذين يستبدلهم الله بمن تولى عن طاعته على شاكلتكم في الإعراض والبخل والتخلف عن واجب النصرة.

وهذه الخاتمة تحمل معنى التهديد، وفي الوقت نفسه تفتح باب الرجاء لمن أراد أن يتدارك نفسه قبل أن يقع عليه الاستبدال؛ فالمؤمن لا ينبغي أن يغتر بما سبق له من عمل، ولا أن يظن أن الانتساب إلى جماعة المؤمنين يغنيه عن القيام بحق الإيمان.

وقد ختمت السورة بهذا المعنى لأن أصل القضية منذ مطلعها هو التمييز بين من اتبع الحق ومن اتبع الباطل؛ فمن اتبع الحق استحق الهداية وإصلاح البال، ومن أعرض عنه خسر عمله، والله غني عن الجميع.

سادسًا :الوحدة الداخلية للمقطع وصلته بالبناء العام للسورة

إن المتأمل في هذا المقطع يجد أن الآيات لم تنتظم فيه على سبيل جمع موضوعات متفرقة، وإنما قامت على حركة متدرجة تبدأ بكشف الباطن، ثم إظهار حقيقة الأعمال، ثم تقرير مقتضيات الإيمان، وتنتهي ببيان افتقار العباد إلى الله وغناه عنهم.

فقد افتتح المقطع بقوله :﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، فكان الحديث عن الأضغان المستترة في القلوب، ثم جاء الابتلاء ليكشف حقيقة المجاهدين والصابرين، ثم انتقل إلى بيان

عاقبة الكافرين الذين صدوا عن سبيل الله، وأعقب ذلك بأمر المؤمنين بالطاعة والمحافظة على أعمالهم.

ثم جاء النهي عن الوهن والدعوة إلى السلم في حال العلو، مقرونًا بالوعد بالمعية الإلهية وعدم إضاعة الأعمال .وبعد ذلك أعاد السياق توجيه النظر إلى حقيقة الدنيا، حتى لا يستولي حب الحياة والمال على النفس فيصرفها عن الجهاد والإنفاق.

وتظهر دقة هذا البناء في تكرار لفظ الأضغان؛ فقد ورد في أول المقطع في سياق كشف نفاق القلوب، ثم ورد في سياق الإنفاق، ليربط بين فساد الاعتقاد وفساد الإرادة، وبين العداوة المستترة والشح الذي يمنع الإنسان من الاستجابة لأمر الله.

كما تتقابل في المقطع معاني الغنى والفقر، والإيمان والكفر، والطاعة والتولي، والبذل والبخل .وهذه المقابلات ليست مجرد تضادات لفظية، بل تكشف عن اختلاف حقيقة الفريقين :فالمؤمن يعلم أن حاجته إلى الله أعظم من حاجته إلى المال، والمنافق يجعل ما يملكه من مال أو مكانة مقدمًا على مقتضيات الإيمان.

ومن أبرز مظاهر النظم أن السورة ختمت الحديث عن أحوال المؤمنين بتهديدهم بإمكان الاستبدال؛ لأن الجماعة المؤمنة لا تحفظ منزلتها بمجرد الانتساب، وإنما تحفظها بالقيام بحقوق الإيمان.

سابعًا :المسائل العلمية والتحريرات المكملة

مسألة الاستبدال بالقوم الآخرين: ورد في تفسير قوله تعالى :﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قول بأن المراد بهم أهل فارس، واستند أصحاب هذا القول إلى الحديث الوارد في ذكر سلمان الفارسي رضي الله عنه، وفيه الإشارة إلى قومه.

وروى الطبري هذا الخبر من طريق مسلم بن خالد، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، كما ذكر أقوالًا أخرى في تعيين المستبدل بهم، منها أهل اليمن، وذكر عن مجاهد أن المعنى :من يشاء الله من عباده .

والذي ينبغي اعتماده في أصل التفسير أن الآية لا تحصر الاستبدال في أمة بعينها؛ لأن لفظ ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ عام، والخبر الوارد في فضل الفرس لا يمنع دخول غيرهم في مدلول اللفظ.

وعليه، فالتعيين من باب ذكر بعض أفراد العموم وبيان فضلهم، وليس حصرًا للمعنى القرآني فيهم.

مسألة البخل والحقوق المالية: ينبغي التمييز بين البخل المذموم وبين إمساك الإنسان ما يحتاج إليه في حدود ما أباحه الله.

فالآية تذم الامتناع عن الإنفاق المشروع، ولا تدل على وجوب بذل جميع الأموال أو إسقاط حقوق الإنسان وأهله ومن تلزمه نفقتهم.

كما أن قوله :﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ لا يلغي فرائض الزكاة والنفقات الواجبة، وإنما يبين أن الله لم يجعل التكليف قائمًا على استئصال الأموال وإهلاك أصحابها.

وفي ذلك أصل مهم في فهم التشريع المالي الإسلامي، وهو أن المال أمانة ووسيلة للقيام بحقوق الله والخلق، وليس ملكًا مطلقًا ينفرد صاحبه بالتصرف فيه دون اعتبار للحقوق الواجبة.

مسألة الطاعة وإحباط العمل: تقرر الآيات أن الكفر الذي يموت عليه صاحبه يحبط العمل ويمنع المغفرة، وأن الطاعة أساس حفظ الإيمان والأعمال.

لكن لا يجوز توسيع هذا الحكم حتى يشمل كل معصية أو تقصير؛ فالقرآن فرق بين الشرك وما دونه، وبين الكفر والمعصية، وبين إحباط العمل كله ونقص ثوابه.

والواجب في هذه المسألة جمع النصوص، وعدم بناء حكم عقدي عام على آية واحدة بمعزل عن سائر الأدلة.

ثامنًا :المراجع العلمية للمقطع

١. الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تفسير سورة محمد، ولا سيما الآيات ٣٠-٣١ و٣٥-٣٨ .
٢. ابن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، تفسير سورة محمد، الآيات ٢٩-٣٨ .
٣. ابن عاشور، *التحرير والتنوير*، تفسير سورة محمد، الآية ٣٥، في تحرير النهي عن الوهن والدعوة إلى السلم .

الوحدة الموضوعية والنظم في سورة محمد

تمهيد :السورة بناء واحد في تقرير حقيقة الإيمان ومقتضياته

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدى للناس، وجعل آياته متآزرة في بيان الحق وإقامة الحجة، والصلاة والسلام على رسول الله محمد، الذي بلّغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده.

إن سورة محمد ليست مجموعة من الأحكام المتعلقة بالقتال، ولا مجرد عرض لمواقف المؤمنين والكافرين والمنافقين، وإنما هي بناء قرآني متكامل يعالج قضية مركزية، هي **حقيقة الإيمان حين ينتقل من الاعتقاد إلى العمل، ويواجه الابتلاء، ويترتب عليه الولاء والطاعة والبذل والثبات.**

ومن هنا جاء افتتاح السورة بالتمييز بين الذين كفروا واتبعوا الباطل، والذين آمنوا واتبعوا الحق، ثم أخذت تعرض آثار هذا الاختلاف في الأعمال والمصائر، وفي المواقف من الوحي والقتال، وفي الاستجابة للتكاليف، وفي أحوال القلوب عند الابتلاء، حتى انتهت إلى تقرير أن الله غني عن عباده، وأن الدين لا يتوقف على طاعة قوم أو بقائهم، وأن من تولى استبدل الله به غيره.

فالسورة، بهذا الاعتبار، لا تكتفي بتقرير أن الإيمان حق والكفر باطل، بل تكشف عن حقيقة كل منهما في واقع الإنسان :كيف يظهر الإيمان في الطاعة والتضحية والصبر والإنفاق، وكيف يظهر الكفر والنفاق في الصد عن سبيل الله، واتباع الهوى، والوهن، وكراهية ما أنزل الله، والإعراض عن مقتضيات الحق.

والجامع بين هذه المعاني أن الإيمان ليس دعوى مجردة، وإنما حقيقة تظهر آثارها عند ورود الأمر، وقيام الابتلاء، وتعارض محبة النفس والمال مع مقتضى العبودية.

أولًا :المحور المركزي الذي تنتظم فيه السورة

يمكن صياغة المحور المركزي لسورة محمد على النحو الآتي:

إقامة التمييز بين الإيمان الحق والكفر والنفاق، ببيان حقيقة كل فريق من خلال موقفه من الوحي والطاعة والجهاد والابتلاء والإنفاق، وما يترتب على ذلك من الهداية والضلال، وإصلاح الأعمال وإحباطها، والفوز أو الخسران في الدنيا والآخرة.

وهذا المحور لا يستخرج من آية منفردة، وإنما من مجموع السورة، ومن انتظام مطلعها ووسطها وخاتمتها.

ففي المطلع يقرر الله سبحانه أن الذين كفروا اتبعوا الباطل، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق، وأنه يكفر عن المؤمنين سيئاتهم ويصلح بالهم .وهذه المقابلة تؤسس للتمييز الذي ستتفرع عنه سائر القضايا.

ثم لا يترك السياق الإيمان والكفر في مستوى التعريف النظري، بل ينقلهما إلى ميدان العمل؛ فيعرض حكم الذين كفروا، وما يترتب على الصد عن سبيل الله، ثم يبين أحكام القتال والأسرى، ويكشف ما في مواقف المنافقين من تردد وإعراض، ويقرر أن الابتلاء هو الذي يميز الصادق من غيره.

وبذلك تصبح الأحكام العملية جزءًا من الحجة العقدية والأخلاقية للسورة؛ فالقتال ليس موضوعًا منفصلًا عن حقيقة الإيمان، والإنفاق ليس تكليفًا ماليًا معزولًا عن العبودية، والصبر ليس مجرد فضيلة فردية، وإنما جميع ذلك مظاهر عملية للانتماء إلى الحق.

ومن أهم ما يميز هذا البناء أن السورة تربط بين صلاح الباطن وصلاح الظاهر؛ فلا يكفي أن يعلن الإنسان الإيمان بلسانه، ثم يعرض عن القرآن حين يتطلب منه طاعة، أو يتراجع حين يقتضي الأمر بذلًا وتضحية.

ولهذا تتكرر فيها الإشارة إلى القلب، والأعمال، والهداية، والضلال، والصد، والاتباع، باعتبارها حلقات متصلة في بيان حقيقة الإنسان وموقفه من الحق.

ثانيًا :التدرج في بناء الحجة من المطلع إلى الخاتمة

تتحرك السورة في بناء حجتها حركة متدرجة، ينتقل فيها الخطاب من تقرير الأصل إلى كشف آثاره، ثم إلى امتحان صدقه، ثم إلى بيان العاقبة.

المرحلة الأولى :تأسيس معيار التمييز بين الفريقين

يبدأ البناء بإقامة المقابلة بين الكفر والإيمان، لا باعتبارهما اسمين يطلقان على جماعتين فحسب، وإنما باعتبارهما طريقين متعارضين في الاعتقاد والعمل والغاية.

فالذين كفروا اتبعوا الباطل، والذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .ويترتب على ذلك اختلاف الجزاء :إحباط الأعمال من جهة، وتكفير السيئات وإصلاح البال من جهة أخرى.

وهنا تتأسس قاعدة السورة :أن قيمة العمل ومآله لا ينفصلان عن حقيقة الاعتقاد الذي يقوم عليه، وعن الوجهة التي يتجه إليها صاحبه.

ثم يلفت السياق إلى أن هذا التمييز ليس أمرًا اعتباريًا أو اجتماعيًا، بل هو سنة إلهية تظهر آثارها في مصائر الأمم والأفراد.

المرحلة الثانية :نقل التمييز إلى ميدان المواجهة والعمل

بعد تقرير الأصل، ينتقل السياق إلى بيان أثره في واقع المواجهة بين الحق والباطل، فيتناول القتال، ويبين ما يترتب عليه من أحكام، ويحرر شأن الأسرى والمنّ والفداء.

وهنا تتجلى خصوصية السورة؛ إذ لا تفصل بين الاعتقاد والتشريع، ولا تجعل الحكم العملي أمرًا خارجًا عن البناء الإيماني، بل تضعه في سياقه الذي يبين الغاية منه وحدوده.

فالقتال في السورة متصل بنصرة الحق ودفع الصد عن سبيل الله، وليس غاية مستقلة أو تشريعًا منفصلًا عن مقاصد العدل والابتلاء والعبودية.

ويظهر في هذا السياق أيضًا أن النصر ليس مجرد نتيجة للقوة المادية، وإنما هو مرتبط بنصرة الله لعباده، وثباتهم على أمره، وصدق توجههم إليه.

المرحلة الثالثة :كشف حقيقة الاستجابة للوحي

بعد بيان مقتضيات المواجهة، تنتقل السورة إلى ميدان أكثر اتصالًا بباطن الإنسان، وهو موقفه من الوحي.

فتكشف عن حال الذين يستمعون إلى القرآن ولا ينتفعون به، وعن قسوة القلوب والطبع عليها، وعن الذين كرهوا ما أنزل الله واتبعوا ما أسخطه.

وهنا تتضح الصلة بين اتباع الحق واتباع الهوى؛ فالإعراض عن الوحي ليس مجرد قصور في الفهم، وإنما قد يكون نتيجة فساد الإرادة، ورفض ما يقتضيه الحق من تغيير السلوك والموقف.

كما يظهر أن الاستجابة الحقيقية لا تقاس بمجرد حضور مجلس العلم أو سماع الآيات، وإنما بما تحدثه الهداية في القلب والعمل.

المرحلة الرابعة :جعل الابتلاء كاشفًا عن حقيقة الإيمان

تبلغ الحجة في هذا الموضع درجة أعمق؛ إذ لا يكتفي الخطاب ببيان ما ينبغي للمؤمن أن يفعله، بل يقرر أن الله يبتلي عباده ليعلم المجاهدين منهم والصابرين، ويظهر صدقهم في ميدان العمل.

والابتلاء هنا ليس اكتسابًا لعلم لم يكن حاصلًا لله سبحانه، فهو العليم بما كان وما يكون، وإنما هو إظهار المعلوم في عالم الفعل والوقوع، وقيام الحجة على العباد، وظهور آثار اختياراتهم.

ومن هنا يتصل الابتلاء بمسألة الأعمال اتصالًا وثيقًا؛ لأن الإيمان الذي لا تظهر آثاره عند ورود التكليف يبقى دعوى لا تشهد لها المواقف.

ثم يجيء التحذير من الوهن والدعوة إلى السلم في غير موضعها، ليقرر أن مقتضى الإيمان هو الثبات، وأن التراجع عن الحق خوفًا على المصالح العاجلة لا ينسجم مع حقيقة التوكل على الله.

المرحلة الخامسة :رد الإنسان إلى حقيقة الدنيا والمال

بعد الحديث عن الجهاد والصبر والثبات، ينتقل السياق إلى ما قد يكون من أعظم أسباب الوهن :التعلق بالحياة الدنيا والمال.

فالدنيا في ميزان الآخرة متاع زائل، والإنفاق في سبيل الله ليس خسارة، وإنما هو استثمار للعمل الباقي.

ثم تنتهي الحجة ببيان أن الله غني عن عباده، وأنهم الفقراء إليه، وأن التولي عن طاعته لا يضر ملكه ولا يعطل دينه، إذ يستطيع أن يستبدل بقوم غيرهم من يقومون بما أعرضوا عنه.

وهكذا تتدرج السورة من بيان حقيقة الفريقين إلى امتحان أعمالهما، ثم إلى كشف دوافعهما، ثم إلى تقرير عاقبتهما، حتى يصبح ختامها نتيجة منطقية لما سبقها من بناء.

ثالثًا :العلاقة بين الإيمان والعمل، وبين الكفر وإحباط الأعمال

من أعمق الروابط التي تنتظم سورة محمد ربطها بين حقيقة الاعتقاد وأثره في العمل ومآله . فالسورة لا تعرض الإيمان بوصفه تصديقًا ذهنيًا مجردًا، ولا الكفر بوصفه موقفًا نظريًا منفصلًا عن السلوك، وإنما تكشف عن الصلة بين ما يستقر في القلب وما يصدر عن الإنسان من أفعال ومواقف.

وقد جعلت هذه العلاقة ظاهرة منذ المطلع؛ إذ قرنت اتباع الحق بالإيمان، وقرنت اتباع الباطل بالكفر، ثم رتبت على ذلك اختلاف الجزاء.

قال الله تعالى :﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٢ .فجمعت الآية بين الإيمان والعمل الصالح والإيمان بالوحي المنزل على النبي ﷺ، ثم رتبت عليها تكفير السيئات وإصلاح البال.

وهذا الجمع له دلالته في بناء السورة؛ فالإيمان ليس مجرد الانتساب إلى الرسالة، وإنما يتأكد باتباع ما أنزل الله، والاستجابة لما يقتضيه من عمل .كما أن ذكر الإيمان بما نزل على محمد ﷺ بعد ذكر الإيمان والعمل الصالح يبرز مركزية الوحي في تصحيح الاعتقاد وتوجيه السلوك.

وفي المقابل، جاء إحباط الأعمال في شأن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله .وليس المقصود أن كل عمل يصدر عن غير المؤمن لا أثر له في أي اعتبار دنيوي، وإنما أن العمل الذي يراد به وجه الله والنجاة في الآخرة لا يستقيم على أساس الكفر الذي يناقض أصل الإيمان.

وهنا ينبغي التفريق بين أمرين :صلاح العمل في صورته الظاهرة، وقبوله وثوابه عند الله . فقد يكون العمل نافعًا في مصالح الدنيا، لكن ذلك لا يستلزم أن يكون صاحبه مستحقًا لثواب الآخرة.

وتتسع هذه الدلالة في السورة لتشمل التحذير من إبطال الأعمال بعد قيام أصل الإيمان؛ فليس المطلوب مجرد البدء بالطاعة، وإنما المحافظة عليها وعدم نقضها بالمعصية التي تحبط العمل أو تنقص ثوابه بحسب دليلها وحقيقتها.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، سورة محمد :الآية ٣٣ .فجاء الأمر بالطاعة متصلًا بالنهي عن إبطال الأعمال؛ ليبين أن الإيمان الذي يثمر العمل يقتضي الاستمرار في الانقياد، وألا يتحول العمل الصالح إلى رصيد يغتر به صاحبه، ثم يضيعه بالإعراض والمخالفة.

ولا تدل الآية على أن كل ذنب يبطل جميع أعمال الإنسان؛ فهذه مسألة تحتاج إلى جمع النصوص وتحرير أنواع الإحباط وأسبابه .وإنما تدل على خطورة ما يبطل الأعمال، وعلى وجوب صيانتها من النواقض والمفسدات.

ويظهر من مجموع السورة أن العمل ليس مجرد ثمرة للإيمان، بل هو ميدان ظهور صدقه، وأن الإيمان ليس ضمانًا شكليًا يغني صاحبه عن الطاعة، بل هو حقيقة تقتضي الانقياد للوحي.

ومن هنا جاء الحديث عن المنافقين؛ فهم يمثلون صورة الانفصال بين ظاهر الانتساب إلى جماعة المؤمنين وباطن الاستجابة الحقيقية .وقد كشفت السورة أن موقفهم من الوحي والقتال والإنفاق يكشف ما في قلوبهم، وأن فساد الباطن يظهر عند مواجهة التكليف.

وبذلك تتكامل في السورة ثلاث حلقات :اعتقاد يحدد الوجهة، وعمل يكشف صدق الاعتقاد، وجزاء يترتب على حقيقة الإيمان أو الكفر وما يصاحبهما من مواقف.

رابعًا :تكامل مقاطع القتال والأسرى والمنافقين والابتلاء والإنفاق

قد يبدو لمن ينظر إلى موضوعات السورة متفرقة أن أحكام القتال والأسرى، والحديث عن المنافقين، وأمر المؤمنين بالثبات والإنفاق، مباحث مستقلة، غير أن النظر في انتظامها يكشف أنها حلقات في حجة واحدة :كيف تتحول حقيقة الإيمان إلى موقف عملي حين تواجه الإنسان تكاليف الحق ومخاطر الالتزام به؟

الصلة بين القتال وحقيقة الإيمان

جاء الحديث عن القتال بعد تأسيس التمييز بين الفريقين؛ ليكون ميدانًا عمليًا تظهر فيه آثار هذا التمييز .فالمؤمن لا يكتفي بإقرار الحق، بل يكون مستعدًا للقيام بما يوجبه عليه في حدود الشرع، والكافر لا يقتصر موقفه على مخالفة الاعتقاد، بل قد يتحول إلى الصد عن سبيل الله ومحاربة دعوته.

ومن هنا جاء تشريع القتال في سياق مواجهة قائمة بين الحق والباطل، مع بيان حدوده وأحكامه، وعدم ترك أمر الأسرى للأهواء أو الانتقام.

واللافت أن السورة لم تجعل الحديث عن القتال نهاية للمقطع التشريعي، بل انتقلت إلى أحكام الأسرى والمنّ والفداء، وهذا يكشف أن إدارة المواجهة نفسها محكومة بالتشريع، وأن القوة لا تعني إسقاط الضوابط الشرعية.

فالمؤمن مأمور بالطاعة في حال القتال، كما هو مأمور بها في حال السلم، ولا تتحول المواجهة إلى مبرر للتصرف خارج حدود ما شرعه الله.

الصلة بين أحكام الأسرى والابتلاء

إن الانتقال من أحكام القتال إلى أحكام الأسرى يبين أن التكليف لا يقف عند لحظة المواجهة، بل يمتد إلى ما بعدها .فالمؤمن مبتلى في كيفية القتال، ومبتلى كذلك في كيفية التعامل مع آثاره ونتائجه.

وتتجلى هنا حقيقة العبودية؛ إذ لا يملك الإنسان أن يجعل الانتصار أو الغضب أو الرغبة في الانتقام حاكمًا على أفعاله، بل يرجع إلى حكم الله.

ومن هذا الوجه تتصل أحكام الأسرى بمقصد السورة في اختبار صدق الانقياد؛ فليس الامتثال أن ينفذ الإنسان ما يوافق هواه، وإنما أن يقف عند أمر الله ونهيه، سواء وافق رغبته أم خالفها.

الصلة بين المنافقين والابتلاء

بعد بيان مقتضيات المواجهة، يكشف السياق عن أولئك الذين يظهرون الانتساب إلى المؤمنين، لكن قلوبهم لا تستجيب لما يستلزمه هذا الانتساب.

وهنا ينتقل الخطاب من ظاهر الموقف إلى باطنه، فيعرض أحوال الذين يستمعون إلى الوحي ولا ينتفعون به، والذين يترددون عند ورود الأمر، والذين يكرهون ما أنزل الله.

وتكمن أهمية هذا الانتقال في أن السورة لا تحصر الخطر في العدو الظاهر، بل تكشف عن خطر التناقض بين الظاهر والباطن داخل الجماعة نفسها.

فالمنافق قد يشهد مجالس الوحي، ويسمع الخطاب، ويكون حاضرًا في المجتمع المؤمن، لكنه لا يجعل ما يسمعه حاكمًا على إرادته .ولهذا كان الابتلاء كاشفًا لما في القلوب، ومظهراً للفارق بين من يستجيب لله ورسوله ومن يتبع هواه.

الصلة بين الابتلاء والثبات

بعد كشف مواقف المنافقين، يأتي الأمر بالثبات والصبر وعدم الوهن؛ لأن الإيمان لا يظهر في أوقات السعة وحدها، وإنما تتبين حقيقته حين تشتد التكاليف.

والابتلاء في هذا الموضع يؤدي وظيفة تربوية وحجاجية معًا :فهو يربي المؤمن على الصبر، ويقيم الحجة على من أعرض، ويظهر الفارق بين من يقدم أمر الله ومن يقدم راحة نفسه.

ومن هنا لا يكون الثبات مجرد فضيلة نفسية، بل هو مقتضى الإيمان بالحق الذي اتبعه المؤمنون، وثقتهم بوعد الله، وإدراكهم أن أعمالهم لا تضيع عنده.

الصلة بين الثبات والإنفاق

ثم ينتقل السياق من الجهاد والثبات إلى الإنفاق، وهذا انتقال له دلالة عميقة؛ لأن من أعظم ما يضعف إرادة الإنسان عند التكليف تعلقه بالدنيا والمال.

فقد يثبت المرء في القول، لكنه يتراجع حين يطلب منه البذل، وقد يقر بوجوب النصرة، لكنه يمسك ماله عند الحاجة إليه.

ومن ثم جاء الحديث عن حقيقة الحياة الدنيا، وعن أن الله لا يسأل عباده أموالهم استئصالًا، ثم جاء التحذير من البخل، وبيان أن ضرره يعود على صاحبه.

وهكذا يكتمل البناء :فالإيمان يقتضي موقفًا من الحق، والموقف يقتضي ثباتًا عند الابتلاء، والثبات لا ينفصل عن الاستعداد للبذل، والإنفاق يكشف مقدار تحرر القلب من استعباد المال.

فالقتال والأسرى والمنافقون والابتلاء والإنفاق ليست موضوعات متجاورة فحسب، وإنما هي وجوه متعددة لاختبار حقيقة العبودية.

خامسًا :المقابلات القرآنية وتكرار الألفاظ المحورية وأثرهما في النظم

تتميز سورة محمد بكثرة المقابلات التي تجعل المعاني متقابلة أمام القارئ، فلا تعرض الحق والباطل عرضًا مجردًا، وإنما تكشف آثار كل منهما في الاعتقاد والعمل والمصير.

ومن أهم هذه المقابلات:

مقابلة الحق والباطل

بدأت السورة بالمقابلة بين الذين كفروا واتبعوا الباطل، والذين آمنوا واتبعوا الحق من ربهم.

وهذه المقابلة هي الأصل الذي تتفرع عنه سائر المقابلات؛ إذ لا يستوي طريق يقوم على اتباع الباطل وطريق يقوم على اتباع الحق، ولا تستوي الأعمال التي تصدر عن كل منهما في حقيقتها ومآلها.

كما أن وصف الحق بأنه من ربهم يربطه بمصدره الإلهي، فلا يكون تابعًا لأهواء البشر أو موازينهم المتغيرة.

مقابلة الهداية والإضلال

يتكرر في السورة معنى الهداية والضلال في سياقات متصلة بالاتباع والعمل وموقف الإنسان من الوحي.

فالهداية ليست مجرد معرفة الطريق، بل تشمل التوفيق لاتباعه والسير فيه، والضلال ليس مجرد فقدان المعلومة، بل قد يكون نتيجة إعراض الإنسان عن الحق بعد ظهوره له.

ومن هنا تتصل الهداية باتباع الحق، كما يتصل الإضلال باتباع الباطل والهوى والصد عن سبيل الله.

وهذا لا يعني إلغاء مسؤولية الإنسان عن اختياره، بل إن السورة تجمع بين فعل الله في الهداية والإضلال، وبين موقف الإنسان الذي يختار الاستجابة أو الإعراض، وفق سنن الله وعدله.

مقابلة إصلاح البال وإحباط الأعمال

من الألفاظ المركزية في مطلع السورة قوله تعالى :﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، في مقابل قوله في شأن الكافرين :﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

والبال يتصل بحال الإنسان وشأنه وما يجتمع عليه أمره، وإصلاحه أوسع من مجرد صلاح جانب واحد من حياته؛ إذ يشمل ما يصلح به أمره في دينه ودنياه وآخرته بحسب مقتضى السياق.

أما إضلال الأعمال فيدل على ذهابها عن الغاية التي ينتفع بها أصحابها، وعدم وصولهم بها إلى الثواب والنجاة.

وهكذا تقيم السورة مقابلة بين إصلاح شامل يناله أهل الإيمان، وضياع للعمل عند من كفر واتبع الباطل.

وهذه المقابلة من أهم مفاتيح فهم السورة؛ لأنها تجعل آثار الاعتقاد ظاهرة في مصير الإنسان، فلا ينظر إلى الإيمان والكفر باعتبارهما وصفين نظريين، بل باعتبارهما طريقين لهما نتائج متباينة.

تكرار لفظ الأضغان

من أظهر الروابط اللفظية والدلالية في السورة ورود لفظ الأضغان في سياق كشف المنافقين، ثم وروده في سياق الحديث عن الأموال.

وهذا التكرار يربط بين فساد القلب ومظاهر السلوك؛ فالأضغان التي تخفى في الصدور لا تبقى بالضرورة مستترة، بل قد تكشفها المواقف التي تتطلب طاعة أو بذلًا.

وفي هذا إشارة إلى أن الشح ليس مجرد خلل مالي، إذا تحول إلى رفض لحق الله، وإنما قد يكون مظهراً من مظاهر تعلق القلب بالدنيا وتقديم الهوى على الطاعة.

والتكرار هنا ليس إعادة لفظية خالية من الوظيفة، بل يربط موضعين متباعدين في السورة بعلاقة معنوية :ما يضمره القلب قد يظهر عند مطالبة الإنسان بالتضحية.

تكرار الأعمال والإحباط

يتكرر الحديث عن الأعمال في السورة، مقرونًا بالإضلال والإحباط من جهة، وبالتكفير والإصلاح وعدم الإضاعة من جهة أخرى.

وهذا التكرار يجعل العمل محورًا ظاهرًا في الحجة القرآنية؛ لأن السورة تريد نقل الإنسان من مجرد الانتساب إلى الحق إلى القيام بمقتضياته.

وتتوزع دلالة الأعمال على أحوال متعددة :عمل الكافرين الذي لا يبلغ بهم غاية النجاة، وعمل المؤمنين الذي يصلحه الله ويكفر به سيئاتهم، وعمل المجاهدين الذي يبتليهم الله ليظهر صدقهم، وعمل من يخالف الأمر فيعرض نفسه للإبطال.

وبذلك لا يكون تكرار لفظ العمل تكرارًا لموضوع واحد من جهة واحدة، بل تتنوع دلالاته بحسب السياق، مع بقائه خادمًا للمحور الجامع.

مقابلة الغنى والفقر

تبلغ هذه المقابلة ذروتها في خاتمة السورة؛ إذ يقرر الله غناه المطلق وفقر العباد إليه.

وهذه المقابلة تعيد توجيه النظر إلى حقيقة الإنفاق؛ فالإنسان لا يمنح الله شيئًا يزيد في ملكه، وإنما يطيع ربًا غنيًا، وينتفع هو بطاعته.

ومن ثم فإن البخل ليس نقصًا في حق الله، بل حرمان للنفس من الخير، والتولي لا يضر الله، وإنما يعود ضرره على صاحبه.

وهكذا تلتقي المقابلة الأخيرة مع أصل السورة؛ فالذي يظن أنه يحفظ نفسه بالإعراض عن التكليف إنما يختار الخسران، والذي يبذل في سبيل الله إنما يقدم لنفسه ما ينفعها.

سادسًا :مناسبة مطلع السورة لخاتمتها ودلالة البناء الدائري

من أبرز وجوه إحكام النظم في سورة محمد أن خاتمتها تعود بالقارئ إلى القضية التي افتتحت بها، ولكن بعد أن تكون السورة قد عرضت أدلتها ومظاهرها وآثارها في الاعتقاد والعمل والمواقف.

فالمطلع يقرر التمييز بين الذين كفروا والذين آمنوا، ويبين اختلاف الطريقين وما يترتب عليهما من اختلاف الجزاء، ثم تمضي السورة في تفصيل هذا التمييز من خلال مواقف متعددة، حتى تنتهي إلى التحذير من التولي والاستبدال.

وهذا الانتقال من المطلع إلى الخاتمة ليس مجرد عودة إلى الموضوع الأول، بل هو عودة بعد إقامة الحجة؛ فالقارئ الذي عرف في البداية أن الناس فريقان بحسب اتباع الحق أو الباطل، يرى في نهاية السورة أن هذا التمييز يتأكد في المواقف العملية، وأن الانتساب لا يغني عن الاستجابة.

من اتباع الحق إلى القيام بحقه

افتتحت السورة بذكر الذين آمنوا واتبعوا الحق من ربهم، ثم كشفت في أثنائها عن مقتضيات هذا الاتباع :طاعة الله ورسوله، والثبات عند ورود التكليف، والصبر عند الابتلاء، والقيام بما يقتضيه الجهاد، والإنفاق في سبيل الله.

فلم تجعل السورة اتباع الحق مجرد وصف اعتقادي، بل جعلته طريقًا له تكاليفه ومسؤولياته.

وفي المقابل، لم تكتف بذكر الكافرين في المطلع، وإنما عرضت مظاهر اتباعهم للباطل :الصد عن سبيل الله، وكره ما أنزل الله، واتباع ما أسخطه، والإعراض عن الوحي، والوهن عند مواجهة الحق.

وهكذا أصبح ختام السورة مهيأً بالضرورة للتحذير من التولي؛ لأن من أعرض عن مقتضيات الإيمان فقد خالف الطريق الذي بدأ به الخطاب.

من إصلاح البال إلى الاستبدال

من دقائق الصلة بين المطلع والخاتمة أن السورة افتتحت بذكر إصلاح البال للمؤمنين، ثم انتهت ببيان غنى الله عن العباد وقدرته على استبدال قوم بآخرين.

وفي ذلك تقابل بين من يصلح الله شأنه حين يتبع الحق، ومن يعرض عن أمر الله فيعرض نفسه للحرمان والاستبدال.

فالإصلاح في المطلع ثمرة من ثمرات الإيمان، والاستبدال في الخاتمة تهديد لمن لم يقم بحق الإيمان.

ولا يعني ذلك أن كل تقصير يوجب الاستبدال حتمًا في كل فرد، وإنما المراد أن سنة الله لا تتوقف على قوم بعينهم، وأن من أعرض عن نصرة دينه لم يكن له أن يمن على الله بانتسابه إليه.

من بيان مصائر الفريقين إلى التحذير من التولي

تبدأ السورة ببيان اختلاف مصير الفريقين، لكنها لا تنتهي بمجرد وصف الجزاء الأخروي، بل تخاطب المؤمنين بتحذير مباشر من أن يسلكوا سبيل الإعراض.

وهذا التحول له أثر تربوي مهم؛ لأن الحديث عن مصائر الكافرين والمنافقين لا يراد به مجرد إظهار سوء عاقبتهم، وإنما يراد به أيضًا تنبيه المؤمن إلى أن طريق النجاة يحتاج إلى المحافظة على مقتضيات الإيمان.

فقد يكون الإنسان على الحق، ثم يعرض عنه عند ورود أمر يشق على نفسه، أو يتعلق بماله تعلقًا يمنعه من أداء الحقوق، أو يضعف أمام الابتلاء.

ولهذا جاءت الخاتمة بتهديد الاستبدال، لتمنع الغرور بالانتساب، وتقرر أن العبرة بالقيام بالحق لا بمجرد دعوى الانتساب إليه.

دلالة الخاتمة في ميزان العبودية

تجمع خاتمة السورة بين معنيين عظيمين :غنى الله المطلق، وفقر الإنسان الدائم إليه.

وهذان المعنيان يكشفان حقيقة التكليف في السورة كلها؛ فالله لا يحتاج إلى جهاد عباده ولا إنفاقهم، وإنما هم المحتاجون إلى هدايته وتوفيقه وأجره.

ومن ثم لا يكون الأمر بالقتال والإنفاق طلبًا لمصلحة تعود إلى الله، وإنما هو تشريع لمصالح العباد وإقامة للحق بينهم.

وإذا أعرضوا، لم ينقص ذلك من ملك الله شيئًا، بل أقام غيرهم مقامهم.

وهذا من أعظم ما يربي عليه ختام السورة من الإخلاص والتواضع؛ فالمؤمن لا يرى عمله منّة على الدين، ولا يظن أن الحق قائم به وحده، وإنما يعلم أنه عبد محتاج إلى توفيق ربه، وأن أعظم ما يناله أن يختاره الله لطاعته.

سابعًا :الانتقالات الخطابية والضمائر في بناء السورة

من وجوه إحكام النظم في سورة محمد تنوع الخطاب بحسب المقام، وانتقاله بين الحديث عن الغائبين ومواجهة المؤمنين، وكشف أحوال المنافقين والكافرين، وتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ.

وهذا التنوع ليس اختلافًا في موضوع السورة، وإنما هو وسيلة بيانية لنقل القارئ بين أطراف الحجة.

ففي مطلع السورة يأتي الحديث عن الفريقين بصيغة الغائب :الذين كفروا، والذين آمنوا . والغرض من ذلك عرض حقيقتهم ومآلهم في صورة تقريرية تقيم معيار التمييز.

ثم ينتقل الخطاب في مواضع أخرى إلى مواجهة المؤمنين بالأمر والنهي، كما في قوله تعالى : ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، سورة محمد : الآية ٣٥.

وهنا يتحول الخطاب من وصف حال المؤمنين إلى تربيتهم على الثبات، وكأن الحجة التي قررت مكانة الإيمان في المطلع أصبحت تكليفًا مباشرًا في واقع الحياة.

كما يتوجه الخطاب إلى النبي ﷺ في مواضع مخصوصة، ومن ذلك قوله سبحانه :﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، سورة محمد :الآية ١٩.

ويأتي هذا التوجيه في سياق بيان موقف المنافقين من الوحي، وتذكير المؤمنين بأصل التوحيد والاستغفار، ليبقى مركز الرسالة هو العبودية لله، مهما تعددت المواقف والأحداث.

وتتكرر صيغة الخطاب في قوله :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في مواضع التكليف، وهذا يربط الأمر والنهي بوصف الإيمان، فكأن مقتضى هذا الوصف أن تكون الطاعة والاستجابة من لوازمه.

وفي المقابل، يكشف الخطاب عن المنافقين بصيغة الغائب في مواضع، وبالتصريح بأحوالهم وضمائرهم في مواضع أخرى، بما يناسب الانتقال من وصف الظاهرة إلى كشف حقيقتها.

أما الانتقال في خاتمة السورة إلى ضمير المخاطبين في قوله :﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فهو انتقال من التقرير العام إلى المواجهة المباشرة؛ إذ لم يعد الحديث عن قوم بعيدين، وإنما صار الخطاب موجهًا إلى من يسمع الدعوة ويُطالب بالاستجابة.

وهكذا تتنوع الضمائر وصيغ الخطاب، بينما تظل وحدة الحجة محفوظة :الإيمان الحق يقتضي استجابة ظاهرة وباطنة، والإعراض يكشف خللًا في حقيقة الاتباع.

ثامنًا :التصوير والمشاهد والإيقاع والفواصل

تقوم سورة محمد على مشاهد متتابعة، تتناسب مع طبيعة الحجة التي تعرضها؛ فهي لا تكتفي بالتقرير المجرد، بل تنقل القارئ إلى صور من المصير والابتلاء والمواجهة والنعيم والعذاب.

تصوير مصير الفريقين

في مطلع السورة مشهدان متقابلان :قوم أضل الله أعمالهم، وقوم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم.

وهذه المقابلة تنقل الاختلاف بين الفريقين من مستوى الوصف إلى مستوى النتيجة؛ فالعمل الذي يظنه الإنسان سببًا للنجاة قد يضيع إذا فقد أساس الإيمان، والعمل الذي يقوم على اتباع الحق يكون سببًا للإصلاح والجزاء.

مشهد الجنة والنار

يعرض السياق مشهد النعيم الأخروي للمؤمنين في مقابل عذاب الكافرين، ويبرز اختلاف المصيرين بما يجعلهما حاضرين في وجدان القارئ.

وفي تصوير الجنة ترد الأنهار والرزق والشراب، وفي تصوير النار يظهر العذاب الذي لا يملك صاحبه دفعه.

وهذا التقابل لا يراد به مجرد وصف النعيم والعذاب، وإنما تقرير أن اختيار الطريق في الدنيا له عاقبة حقيقية، وأن الجزاء الأخروي هو الامتداد النهائي لما اختاره الإنسان من إيمان أو كفر.

مشهد السماع والإعراض

ومن المشاهد المؤثرة في السورة صورة الذين يستمعون إلى الوحي، ثم ينصرفون عنه دون انتفاع.

وهذا المشهد يبرز المفارقة بين وصول الخطاب إلى السمع وعدم وصول أثره إلى القلب؛ فالإنسان قد يسمع البيان، لكنه لا ينتفع به إذا فسدت إرادته وأعرض عن مقتضاه.

ومن هنا يرتبط تصوير السماع بالطبع على القلوب، ثم ببيان أن الذين اهتدوا زادهم الله هدى.

مشهد الابتلاء والمواجهة

تتحرك السورة في مشاهد القتال والثبات والصبر، فتجعل المؤمن أمام تكليف لا يكفي فيه مجرد الاعتقاد، وإنما يحتاج إلى صدق الاستجابة.

ويأتي النهي عن الوهن في هذا السياق ليمنع النفس من الاستسلام للضعف، ويعيد توجيهها إلى وعد الله ومعيته.

الإيقاع والفواصل

تتناسب فواصل السورة مع انتقالاتها بين التقرير والتهديد والوعد والأمر والنهي.

ففي مواضع تقرير المصير تأتي العبارات الحاسمة التي تثبت الجزاء، وفي مواضع كشف أحوال القلوب يشتد وقع الألفاظ المتعلقة بالمرض والطبع والإضلال، وفي مواضع التكليف يبرز خطاب الأمر والنهي، ثم تنتهي السورة بفاصلة تهديدية قوية:

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

وهذه الخاتمة ليست مجرد نهاية صوتية، بل تحمل خلاصة الإنذار :أن الله لا يحتاج إلى قوم بعينهم، وأن صلاحهم لأنفسهم، وأن إعراضهم يفتح المجال لاستبدالهم بمن يقوم بالحق.

تاسعًا :تكامل المباحث العقدية والتشريعية والتربوية والإنسانية

من مظاهر الوحدة الموضوعية في سورة محمد أنها لم تفصل بين المباحث العقدية والأحكام التشريعية والتوجيهات التربوية، بل جعلت كل واحد منها يكشف جانبًا من حقيقة الإيمان.

فالمبحث العقدي في اتباع الحق والإيمان بالوحي هو الأصل الذي تنبني عليه المباحث الأخرى.

والمبحث التشريعي في القتال والأسرى يبين أثر هذا الإيمان في تنظيم المواجهة، وإخضاع القوة لأمر الله، ومنعها من الانفلات عن حدود الشرع.

والمبحث المتعلق بالمنافقين يكشف أن فساد القلب قد يتخفى خلف ظاهر الانتساب، وأن العبرة ليست بمجرد الوجود في جماعة المؤمنين، بل بصدق الاستجابة.

والمبحث التربوي في الابتلاء والصبر والثبات يبين كيف تتكون الشخصية المؤمنة في مواجهة المشقة، وكيف يربيها القرآن على عدم الوهن أمام التكاليف.

أما المبحث المالي في الإنفاق والبخل، فيكشف عن أثر التعلق بالدنيا في تعطيل الطاعة، ويقرر أن المال أداة للقيام بحقوق الله والعباد، لا غاية تستعبد الإنسان.

وبهذا تتكامل المباحث في بناء واحد؛ فالعقيدة تحدد الوجهة، والتشريع ينظم العمل، والابتلاء يكشف الصدق، والتربية تثبت الإرادة، والإنفاق يظهر حقيقة التحرر من الشح.

ولا يستقيم فهم السورة إذا عُزل واحد من هذه المباحث عن الآخر؛ لأن كل واحد منها يمثل جانبًا من اختبار الإيمان في حياة الإنسان.

عاشرًا :النتيجة الجامعة لدراسة الوحدة الموضوعية والنظم

يتبين من مجموع ما تقدم أن سورة محمد تقوم على بناء محكم يبدأ بإقامة التمييز بين الحق والباطل، ثم يكشف آثار هذا التمييز في الأعمال والمواقف والمصائر، وينقل المؤمنين إلى مقتضيات الطاعة والثبات، ويفضح تناقض المنافقين، ويجعل الابتلاء مظهراً لصدق الإيمان، ثم ينتهي بتقرير غنى الله عن خلقه وافتقارهم إليه.

وقد انتظمت مقاطع السورة في هذا البناء على نحو تتكامل فيه الدلالة العقدية والتشريعية والتربوية؛ فذكر القتال ليس خروجًا عن مقصد السورة، والحديث عن الأسرى ليس حكمًا منفصلًا عن قضية الإيمان، وكشف المنافقين ليس مجرد وصف اجتماعي، والإنفاق ليس مسألة مالية مستقلة؛ بل جميعها تتصل بسؤال واحد :هل يستجيب الإنسان للحق حين يقتضي منه ذلك بذلًا وثباتًا ومخالفة للهوى؟

وتكشف السورة أن أعظم ما يميز المؤمن ليس مجرد دعوى الإيمان، وإنما اتباع الحق الذي أنزله الله، والاستجابة له في المواقف التي تظهر فيها حقيقة العبودية.

كما تكشف أن من أخطر أسباب الخذلان فساد القلب، واتباع الهوى، وكراهية ما أنزل الله، والتعلق بالدنيا، والبخل بما أمر الله ببذله.

أما ختام السورة فيعيد هذه المعاني إلى أصلها :الله غني عن العالمين، والعباد فقراء إليه، والدين لا يتوقف على أحد، وإنما الفضل لمن وفقه الله للقيام بحقه.

وبذلك تظهر سورة محمد وحدة قرآنية متماسكة، تتساند آياتها ومقاطعها في تقرير حقيقة الإيمان، وبيان مقتضياته وموانعه، والكشف عن عواقب الاستجابة والإعراض.

المقاصد والهدايات الكلية لسورة محمد

تمهيد :المقصد الجامع للسورة

بعد النظر في مقاطع سورة محمد، وما انتظم فيها من تقرير حقيقة الإيمان، وبيان آثار الكفر والنفاق، وتشريع القتال وأحكام الأسرى، وكشف مواقف النفوس عند الابتلاء، والأمر بالثبات والإنفاق، يتبين أن السورة لا تعالج هذه القضايا باعتبارها موضوعات متفرقة، وإنما تجمعها قضية كبرى هي :**إقامة حقيقة العبودية لله على أساس اتباع الوحي، وبيان أن صدق الإيمان لا يتحقق بمجرد الدعوى، بل يظهر في الطاعة والثبات والبذل، وأن مخالفة الحق والإعراض عنه يفضيان إلى الخذلان وضياع العمل وسوء العاقبة.**

فالسورة تريد أن تنقل المؤمن من مجرد معرفة الحق إلى القيام بحقه، ومن مجرد الانتساب إلى الرسالة إلى الاستجابة لمقتضياتها، ومن الاطمئنان إلى الإيمان بوصفه دعوى إلى مراقبة القلب والعمل والموقف.

ولهذا تكرر فيها الحديث عن الأعمال، والهداية والإضلال، وإصلاح البال، وما تخفيه الصدور، وما يظهر عند مواجهة التكليف .فالإنسان في ميزان السورة ليس بما يدعيه وحده، وإنما بما يستقر في قلبه، وما يصدقه من عمله، وما يختاره حين تتعارض طاعة الله مع دواعي النفس.

ومن هنا تتفرع المقاصد الكبرى الآتية.

أولًا :المقاصد الكبرى للسورة

المقصد الأول :ترسيخ مرجعية الوحي وإقامة التمييز بين اتباع الحق واتباع الباطل

يتجلى هذا المقصد في مطلع السورة، ولا سيما الآيات الأولى، حيث جعل الله تعالى اتباع الحق من عنده أساسًا للتمييز بين المؤمنين والكافرين، وربط صلاح الإنسان باتباع ما أنزل الله على رسوله ﷺ.

فالإيمان الذي تقرره السورة ليس تصورًا دينيًا يصوغه الإنسان وفق رغباته، وإنما هو استجابة للوحي الذي أنزله الله هداية للناس .ومن ثم لا يجوز أن تتحول الأهواء أو المصالح أو الأعراف إلى مرجعية تحاكم الوحي أو تنتقي منه ما يوافقها وتترك ما يخالفها.

وهذا المقصد يتجاوز مجرد إثبات حجية القرآن إلى تقرير أن الوحي هو الميزان الذي تصحح به التصورات والمواقف والأعمال.

وتظهر آثاره في أن المؤمن يتلقى أمر الله بالتسليم والانقياد، ويجعل رضاه مقدمًا على رغباته، ولا يجعل صعوبة التكليف سببًا لرده أو التحايل عليه.

ومن مقتضيات هذا المقصد كذلك تعظيم السنة النبوية بوصفها بيانًا للوحي وهداية الرسول ﷺ، فلا يستقيم اتباع القرآن مع الإعراض عن البيان النبوي الثابت.

المقصد الثاني :تقرير الصلة بين حقيقة الإيمان وصلاح العمل والجزاء

من المقاصد المركزية للسورة أن الإيمان ليس منفصلًا عن العمل، وأن اختلاف الاعتقاد ينعكس على قيمة الأعمال ومآلات أصحابها.

فقد قرنت السورة بين الإيمان والعمل الصالح واتباع الوحي، وبينت ما يترتب على ذلك من تكفير السيئات وإصلاح البال، كما بينت ما يترتب على الكفر والصد عن سبيل الله من إضلال الأعمال.

وهذا المقصد يؤسس لفهم متوازن لحقيقة العمل الصالح؛ فلا يغتر الإنسان بمجرد كثرة أعماله إذا كانت قائمة على أصل فاسد، ولا ييأس المؤمن من تقصيره إذا رجع إلى الله وأصلح عمله.

كما يقرر أن المحافظة على العمل الصالح جزء من مقتضيات الإيمان، وأن الأعمال معرضة لما يفسدها أو يحبطها، فلا ينبغي أن يتحول إنجاز الطاعات إلى مدخل للعجب والغفلة.

والأثر العملي لهذا المقصد أن يعتني المؤمن بإصلاح أصل إيمانه، وإخلاص قصده، وصحة عمله، والاستمرار في الطاعة، والحذر من الأسباب التي تبطل الأعمال أو تنقص ثوابها.

المقصد الثالث :إظهار أن الطاعة والثبات والبذل هي المظاهر العملية لصدق العبودية

تعرض السورة صورًا متعددة للتكليف، من القتال إلى أحكام الأسرى، ومن الصبر والثبات إلى الإنفاق، لتقرر أن العبودية لا تنحصر في الاعتقاد القلبي، بل تتجلى في الانقياد العملي.

فليس الصادق من يطيع حين توافق الطاعة هواه فحسب، وإنما من يقدم أمر الله حين تتعارض معه رغبته أو مصلحته العاجلة.

ويتضح هذا المقصد في موقف المؤمنين من التكليف، وفي كشف تردد المنافقين، وفي الأمر بعدم الوهن، وفي التحذير من البخل.

كما يظهر في أن أحكام المواجهة نفسها ليست مجالًا للهوى أو الانتقام، وإنما هي محكومة بأمر الله وعدله .فالعبودية تقتضي الالتزام بالتشريع حتى في المواطن التي تشتد فيها دوافع النفس.

والأثر العملي لهذا المقصد أن يقيس الإنسان صدق استجابته بمدى انقياده عند المشقة، لا بمجرد شعوره بالرضا عن نفسه في أوقات السعة.

المقصد الرابع :كشف أمراض القلوب التي تحول بين الإنسان وبين الانتفاع بالوحي

تكشف السورة عن خطر النفاق، ومرض القلب، والإعراض عن القرآن، واتباع الهوى، وكراهية ما أنزل الله، وما يترتب على ذلك من الطبع على القلوب.

وهذا المقصد لا يقتصر على فضح المنافقين بوصفهم فئة تاريخية، وإنما يقرر حقيقة إيمانية مستمرة، وهي أن سلامة القلب شرط عظيم للانتفاع بالهداية.

فالإنسان قد يسمع الوحي ولا يتغير، وقد يعرف الحق ولا يستجيب، وقد يظهر خلاف ما يبطن، وقد تخفي نفسه من الأضغان ما تكشفه المواقف.

ومن هنا تتوجه السورة إلى إصلاح الباطن، وعدم الاكتفاء بصلاح الصورة الظاهرة.

والأثر العملي لهذا المقصد أن يحاسب المؤمن قلبه قبل أن يحاسب الآخرين، وأن يراقب دوافعه عند الطاعة والإنفاق والاختلاف، وألا يغتر بحسن صورته إذا كان باطنه متعلقًا بالهوى أو الحسد أو البغضاء.

المقصد الخامس :تحرير الإنسان من استعباد الدنيا والمال وتربية قلبه على البذل

تختم السورة بتقرير حقيقة الحياة الدنيا، وبيان غنى الله عن عباده، والتحذير من البخل، والتلويح بإمكان استبدال قوم بآخرين.

وهذا الختام يكشف أن من أخطر ما يحول بين الإنسان وبين الطاعة تعلقه بالدنيا حتى تصبح مصلحته العاجلة حاكمة على اختياراته.

فالمال في التصور القرآني نعمة واختبار، وليس غاية مستقلة، والإنفاق ليس خسارة مطلقة، بل قد يكون سببًا للفلاح والنجاة، بحسب إخلاصه ومشروعيته.

وتقرر السورة أن الله لا يحتاج إلى إنفاق العباد، وإنما هم المحتاجون إلى ثوابه وهدايته، وأن البخل لا يضر الله، وإنما يضر صاحبه.

والأثر العملي لهذا المقصد أن يتحرر المؤمن من عبودية المال، وأن يؤدي الحقوق الواجبة، ويبذل في وجوه الخير، ويستحضر أن ما عند الله خير وأبقى.

المقصد السادس :تقرير سنّة الله في نصرة الحق واستبدال من يتولى عنه

تقرر السورة أن الله ناصر دينه، وأنه غني عن العالمين، وأن تولي قوم عن طاعته لا يعطل أمره ولا يمنع تحقق وعده.

ومن أعظم ما تحمله خاتمتها أن الدين لا يقوم على دعوى الانتساب، وأن خدمة الحق فضل من الله على من يوفقه لها، لا منّة من العبد على دين الله.

وهذا المقصد يجمع بين معنيين :الثقة بوعد الله وعدم اليأس من نصرة الحق، والخوف من أن يستبدل الله بالمتخاذلين قومًا غيرهم.

والأثر العملي أن يقوم المؤمن بواجبه دون اغترار بعمله، وأن يعلم أن الله قادر على إقامة دينه بغيره، وأن شرف العبد في أن يختاره الله للطاعة والنصرة.

ثانيًا :الهدايات التربوية الكلية للسورة

لا تنحصر الهدايات التربوية في وصايا جزئية متفرقة، بل تنتظم في بناء يربي الإنسان على سلامة الاعتقاد، واستقامة القلب، وصدق العمل، والثبات عند الابتلاء.

الهداية الأولى :اجعل الوحي أصلًا حاكمًا على التصورات والاختيارات

تعلم السورة أن الهداية لا تتحقق باتباع الرغبات، ولا بمجرد الاستحسان العقلي المنفصل عن الوحي، وإنما باتباع الحق المنزل من الله.

وهذا يقتضي أن يعرض المسلم أفكاره ومواقفه وقراراته على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن يتعلم كيف يقدم الدليل الشرعي على الميل الشخصي.

ولا يعني ذلك تعطيل العقل، وإنما وضعه في موضعه الصحيح :أداة للفهم والنظر والاستنباط، لا مرجعًا مستقلًا يرد به الإنسان حكم الله.

الهداية الثانية :لا تغتر بظاهر العمل، بل اعتن بأصله وقصده ومآله

تربي السورة المؤمن على الجمع بين صحة الاعتقاد وصلاح العمل، وتحذره من الاغترار بمجرد الصورة الظاهرة.

فالعمل يحتاج إلى إخلاص لله، وموافقة للشرع، ومحافظة على شروط قبوله، كما يحتاج إلى دوام ومراقبة.

ومن ثم فإن كثرة الأعمال ليست وحدها معيار الفلاح، وإنما العبرة بما يصحبها من إيمان وإخلاص واتباع.

الهداية الثالثة :راقب قلبك، فإن المواقف تكشف حقيقة ما فيه

تكشف السورة أن أمراض القلوب قد تبقى خفية حتى تأتي المواقف التي تستدعي الصدق والبذل والتضحية.

فلا يكفي أن يسأل الإنسان نفسه عما يقوله، بل يسألها أيضًا عما تحبه وتكرهه، وما تقدمه عند التعارض، وما تضمره من أضغان.

وهذه المراقبة ليست دعوة إلى سوء الظن بالنفس أو اليأس من صلاحها، وإنما هي باب للتوبة والمحاسبة وإصلاح الباطن.

الهداية الرابعة :لا تجعل المشقة سببًا للإعراض عن الحق

من سنن الابتلاء أن تتفاوت استجابة الناس حين تأتي التكاليف التي تخالف راحتهم أو مصالحهم العاجلة.

وتربي السورة المؤمن على الصبر والثبات، وعدم الوهن، وعلى أن مشقة الطريق لا تدل بذاتها على خطئه.

ولكن الثبات المطلوب ليس اندفاعًا غير منضبط، بل التزام بالشرع، وبصيرة في العمل، وصبر على ما أمر الله به.

الهداية الخامسة :اضبط القوة بالعدل والتشريع

تؤكد السورة أن القتال وما يتصل به من أحكام لا يخرج عن سلطان الشريعة.

فلا تكون القوة مبررًا للظلم، ولا تتحول المواجهة إلى انتقام منفلت، ولا يملك الإنسان أن يتصرف في حقوق الآخرين وفق غضبه أو هواه.

وهذه هداية تتصل بمقصد الإصلاح والعدل، وتقرر أن الغاية المشروعة لا تبيح الوسائل المحرمة.

الهداية السادسة :قاوم الشح قبل أن يتحول إلى موقف من طاعة الله

تربي السورة النفس على أن التعلق بالمال قد يتحول إلى مانع من أداء الواجب، وأن البخل لا يحفظ للإنسان حقيقة ما يملك، وإنما يحرمه من الخير.

والعلاج يبدأ بتصحيح تصور الملكية؛ فالمال مال الله، والإنسان مستخلف فيه، ومطالب بأداء حقوقه.

ثم يتدرج إلى الاعتياد على الإنفاق، ومقاومة دواعي الشح، وتقديم مرضاة الله على التعلق المفرط بالمكاسب.

الهداية السابعة :لا تغتر بالانتساب إلى الحق؛ فالعبرة بحسن القيام بحقه

تختم السورة بتحذير بالغ من التولي والاستبدال، وهذا يربي المؤمن على التواضع والخوف من التقصير.

فلا ينبغي لجماعة أو فرد أن يظن أن الحق لا يقوم إلا به، أو أن الانتساب إليه يمنحه حصانة من المحاسبة.

بل الواجب أن يرى العبد توفيق الله أعظم نعمة، وأن يستمر في الطاعة، وأن يعلم أن شرف الخدمة لا يكون إلا بحسن القيام بها.

ثالثًا :توزيع الهدايات على المجالات الكبرى

الهدايات العقدية

تؤسس السورة لعدد من المعاني العقدية الجامعة، من أهمها:

١. أن الوحي حق من عند الله، وأن اتباعه أساس الهداية.
٢. أن الإيمان بالله ورسوله يقتضي تصديق الرسالة والانقياد لها.
٣. أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وفق علمه وحكمته وعدله، وأن الإنسان مسؤول عن اختياره واستجابته.
٤. أن الجزاء الأخروي حق، وأن اختلاف الأعمال والمواقف يترتب عليه اختلاف المصير.
٥. أن الله غني عن خلقه، لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين.
٦. أن النصر والتوفيق من الله، وأن العبد لا يستقل بعمله عن فضل ربه.

الهدايات السلوكية والأخلاقية

تدعو السورة إلى الصدق في القول والعمل، والثبات عند التكليف، والصبر عند المشقة، ومقاومة الهوى، والبعد عن النفاق والرياء والبخل.

كما تربي على صيانة الأعمال من الإبطال، وعدم الاستهانة بالذنوب التي قد تفسد علاقة الإنسان بربه.

ومن أهم معانيها الأخلاقية أن القوة ينبغي أن تقترن بالعدل، وأن الاختلاف والمواجهة لا يبيحان العدوان، وأن المال لا ينبغي أن يتحول إلى سلطان يحكم ضمير الإنسان.

الهدايات الاجتماعية

تظهر الهدايات الاجتماعية في تقرير أن المجتمع المؤمن يقوم على الطاعة والصدق والتكافل، لا على مجرد الشعارات والانتسابات.

كما تبين خطورة النفاق على تماسك الجماعة؛ لأنه يضعف الثقة ويجعل ظاهر الانتماء مخالفًا لحقيقة الالتزام.

وتؤكد السورة أهمية القيام بالحقوق، وبذل المال في المصالح المشروعة، وتحمل المسؤولية عند الحاجة، مع ضبط ذلك بأحكام الشرع.

الهدايات الإنسانية

تكشف السورة عن طبيعة النفس البشرية حين تواجه التكليف؛ فهي قد تميل إلى الراحة، وتتعلق بالمال، وتخشى المشقة، وتضمر ما لا تظهره.

لكنها في الوقت نفسه قابلة للهداية والتزكية، متى أقبلت على الوحي واستجابت له.

ومن هنا فإن الخطاب القرآني لا يعامل الإنسان باعتباره مجرد منفذ للأوامر، وإنما يربي قلبه وإرادته حتى يصير قادرًا على تقديم الحق على الهوى.

مقاصد النبوة

تظهر في السورة معالم الرسالة النبوية من خلال:

١. تبليغ الوحي المنزل من الله.

٢. إقامة الحجة على الناس.

٣. بيان الحق وتمييزه من الباطل.

٤. قيادة المؤمنين إلى مقتضيات الطاعة والثبات.

٥. بيان أحكام المواجهة وما يتصل بها.

٦. تربية الجماعة المؤمنة على الصدق والاستجابة.

فالنبوة ليست مجرد إخبار بالغيب أو نقل للأحكام، بل هداية ربانية تقيم الإنسان على عبودية الله وتوجه المجتمع إلى العدل والحق.

مقاصد العبودية

تقرر السورة أن العبودية لله تظهر في الانقياد لأمره، وتقديم رضاه، والصبر على تكليفه، والإنفاق مما رزق، وعدم الاغترار بالعمل.

كما تكشف أن العبودية لا تكتمل مع استكبار القلب أو تعلقه المطلق بالدنيا، وأن العبد لا يستغني عن فضل الله مهما بلغ من الطاعة.

مقاصد الإصلاح

يظهر الإصلاح في السورة على مستويين متكاملين:

١. إصلاح القلب، بإزالة النفاق والأضغان والهوى، وتحقيق الصدق في الإيمان.

٢. إصلاح العمل والمجتمع، بالطاعة والعدل والثبات والإنفاق والقيام بالمسؤولية.

وبذلك لا يكون الإصلاح مجرد تغيير في الظاهر، ولا مجرد صلاح فردي منعزل، وإنما بناء يجمع بين استقامة الإنسان وإقامة الحق في واقع الحياة.

مقاصد الرحمة والعدل

تظهر الرحمة في تكفير السيئات وإصلاح البال، وفي فتح أبواب التوبة والهداية، وفي جعل التشريع منظمًا لأفعال المؤمنين حتى في أحوال القتال.

ويظهر العدل في عدم التسوية بين المؤمن والكافر، وبين الصادق والمنافق، وبين من يستجيب للوحي ومن يعرض عنه.

كما يظهر في أن الجزاء مرتبط بحقيقة العمل والاعتقاد، وأن الله لا يظلم أحدًا.

الهدايات المتعلقة بالآخرة

تذكر السورة بالجنة والنار، وتقرر أن الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف، وأن الأعمال لا تنفصل عن نتائجها الأخروية.

كما تربي على أن النعيم الحقيقي هو ما أعده الله للمؤمنين، وأن متاع الدنيا مهما عظم فهو محدود زائل.

ومن ثم ينبغي أن تكون الآخرة حاضرة في ميزان الاختيار، فلا يقدم الإنسان لذة عاجلة على نجاة دائمة.

رابعًا :التنزيل المعاصر لمقاصد سورة محمد

التنزيل المعاصر ليس إعادة تفسير الآيات في ضوء وقائع مستجدة، ولا تحميلها أسماء ومصطلحات لم ترد فيها، وإنما هو استحضار مقاصدها الثابتة في معالجة أحوال الإنسان والمجتمع، مع المحافظة على حدود الدلالة الشرعية.

مرجعية الوحي في زمن تضارب المعايير

في واقع تتعدد فيه المرجعيات الفكرية والثقافية، وتتنازع الإنسان تصورات ومصالح مختلفة، تؤكد السورة ضرورة وجود ميزان أعلى يرد إليه المسلم اعتقاده وسلوكه.

ويقتضي ذلك ألا يجعل الإنسان رضا المجتمع أو ضغط الجماعة أو المكسب المادي حاكمًا على الحق، بل يزن مواقفه بميزان الوحي، مع استعمال العقل والعلم والخبرة في فهم الواقع وتنزيل الأحكام.

الصدق بين الاعتقاد والسلوك

من أبرز ما يحتاج إليه الواقع المعاصر مقاومة الفجوة بين الشعارات والممارسات.

فقد ترفع المؤسسات والجماعات والأفراد شعارات الحق والإصلاح، لكن المعيار الحقيقي هو مدى التزامهم بما يعلنون من قيم، وأمانتهم في أداء الحقوق، واستعدادهم لتحمل المسؤولية.

وهذا تنزيل تربوي لمبدأ السورة في كشف النفاق والتناقض بين الظاهر والباطن، دون أن يخول أحدًا الحكم على سرائر الناس أو إطلاق وصف النفاق عليهم بغير بينة.

ترشيد القوة ومنع العدوان

تقدم السورة أصلًا مهمًا في أن القوة لا تنفصل عن حكم الشرع.

وفي الواقع المعاصر يقتضي ذلك رفض الاعتداء على الأبرياء، واحترام العهود والحقوق، والرجوع إلى الأحكام الشرعية والسلطات المختصة في مسائل الحرب والسلم، وعدم تحويل الغضب أو الانتماء إلى مبرر للعنف المنفلت.

كما يقتضي فهم أحكام القتال والأسرى في سياقها الفقهي الكامل، لا اقتطاعها من شروطها وموانعها وأحكامها التفصيلية، ولا تنزيلها على الأفراد والجماعات بغير ولاية معتبرة.

مقاومة النفاق المؤسسي والأخلاقي

يمكن استلهام تحذير السورة من التناقض بين الظاهر والباطن في تقويم السلوك المؤسسي والاجتماعي.

فمن يدعو إلى العدل ينبغي أن يلتزمه، ومن يدعو إلى الأمانة ينبغي أن يكون أمينًا، ومن يرفع شعار نصرة الحق لا يجوز أن يجعل مصالحه الخاصة حاكمة على موقفه.

وهذا تطبيق أخلاقي لمقصد الصدق، وليس حكمًا تفسيريًا بأن كل تناقض معاصر هو النفاق الاعتقادي الوارد في السورة.

بناء ثقافة البذل والمسؤولية

توجه السورة إلى الإنفاق والبذل، ويمكن تنزيل هذا المقصد في تقوية ثقافة التكافل، ودعم المحتاجين، والقيام بحقوق المجتمع، والمساهمة في التعليم والصحة والإغاثة وسائر المصالح المشروعة.

ولا يقتصر البذل على المال، بل يدخل فيه بذل العلم والوقت والجهد والخبرة، مع بقاء الإنفاق المالي في مرتبته الشرعية التي بينها القرآن والسنة.

الثبات أمام الضغوط

تربي السورة على عدم الوهن أمام الصعوبات، وهذا من المعاني المهمة في حياة الأفراد والمجتمعات.

فالإصلاح يحتاج إلى صبر واستمرار، ولا يتحقق بمجرد الحماس المؤقت أو الشعارات، بل بالعمل المنضبط والتخطيط والمراجعة وتحمل المسؤولية.

والثبات المشروع لا يعني التمسك بالخطأ أو رفض النقد، وإنما الثبات على الحق مع قبول التصحيح والرجوع إلى الدليل.

التحرر من عبودية المال

في زمن تتزايد فيه مظاهر الاستهلاك والتنافس المادي، تقدم السورة ميزانًا أخلاقيًا يعيد المال إلى وظيفته الصحيحة.

فالمال وسيلة للقيام بالمصالح، وأداء الحقوق، وتحقيق الخير، وليس معيارًا نهائيًا لقيمة الإنسان.

ومن ثم ينبغي تربية الأفراد والأسر والمؤسسات على الاعتدال، وأداء الحقوق المالية، ومقاومة الشح، وعدم جعل المكاسب المادية مبررًا للتفريط في المبادئ.

خامسًا :الخلاصة المقاصدية للسورة

تتجمع مقاصد سورة محمد في حقيقة جامعة :أن الإيمان عهد مع الله يقتضي اتباع وحيه، وصدق الانقياد له، والثبات على مقتضياته، والبذل في سبيله، والحذر من كل ما يفسد القلب أو يحبط العمل.

فالسورة تبدأ بإقامة الميزان بين الحق والباطل، ثم تكشف أثره في الأعمال والمصائر، وتبين مقتضياته في مواقف التكليف، وتفضح صور الإعراض والنفاق، وتربي المؤمنين على الصبر والثبات، وتنتهي بتقرير غنى الله وتحذير العباد من التولي والاستبدال.

وهي بذلك تربي المؤمن على ألا يكتفي بمعرفة الحق، بل يلتزم به، وألا يكتفي بإظهار الإيمان، بل يصدقه بالعمل، وألا يغتر بما قدم، بل يخشى على عمله من الإبطال، وألا يتعلق بالدنيا حتى تمنعه من طاعة ربه.

فالحق لا يحتاج إلى العباد، وإنما العباد هم المحتاجون إليه؛ ومن وفقه الله للقيام به فقد نال أعظم شرف، ومن أعرض عنه لم يضر إلا نفسه.

الخاتمة التفسيرية الجامعة لسورة محمد

الحمد لله الذي أنزل كتابه هدى للناس وبيانًا، وجعل فيه من دلائل الحق ونور الهداية ما تصلح به القلوب والأعمال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن سورة محمد من السور التي تكشف حقيقة الإيمان في ميدان الابتلاء، وتبين أن اتباع الحق ليس دعوى مجردة، وإنما هو عهد يقتضي تصديق الوحي والانقياد له، والثبات على مقتضياته، والصبر على تكاليفه، والبذل في سبيل الله.

وقد افتتحت السورة بإقامة الميزان الفاصل بين الذين كفروا واتبعوا الباطل، والذين آمنوا واتبعوا الحق من ربهم، فكان هذا التقابل أصلًا انتظمت حوله سائر معانيها .ولم يكن المراد مجرد بيان اختلاف الاعتقاد بين الفريقين، بل بيان ما يترتب على هذا الاختلاف من صلاح الأعمال أو ضياعها، وإصلاح أحوال أصحابها أو خذلانهم، ثم اختلاف مصيرهم في الدنيا والآخرة.

فالإيمان الذي تعرضه السورة إيمان مرتبط بالوحي، لا يستقل فيه الهوى بتحديد الحق، ولا تتحول فيه الرغبة الشخصية إلى ميزان يحاكم به أمر الله .ومن هنا جاء تأكيد اتباع ما أنزل على محمد ﷺ، ووصفه بأنه الحق من ربهم، ليكون مصدر الهداية وأساس الاستقامة.

ثم انتقلت السورة إلى بيان مقتضيات هذا الإيمان في ميدان المواجهة، فعرضت أحكام القتال وما يتصل بها من أحكام الأسرى، وأظهرت أن القوة في الإسلام ليست قوة منفلتة من التشريع، وإنما هي خاضعة لأمر الله وحكمه .فالقتال ليس إذنًا بالعدوان، ولا الأسر مجالًا للانتقام، وإنما لكل ذلك أحكامه وضوابطه التي لا يجوز تجاوزها.

وفي هذا السياق يظهر أن العبودية ليست مقصورة على أوقات السعة والطمأنينة، بل تتجلى كذلك عند اشتداد المواجهة، حين تتعارض دوافع النفس مع مقتضيات الأمر الإلهي . فالمؤمن لا يملك أن يجعل غضبه حاكمًا على التشريع، ولا أن يجعل مصلحته العاجلة مقدمة على حكم الله.

ثم كشفت السورة عن حال المنافقين، وبيّنت أن مجرد سماع الوحي لا يضمن الانتفاع به، وأن القلب إذا أعرض عن الحق لم تنفعه كثرة ما يسمع من البيان .فقد يحضر الإنسان مجلس العلم، ويتلقى الخطاب، ثم ينصرف دون أن يستجيب له، لأن الخلل ليس في وصول الحجة إلى سمعه، وإنما في موقف قلبه منها.

ومن هنا اتصل الحديث عن المنافقين ببيان سنن الله في الهداية والإضلال، وزيادة المهتدين هدى، والطبع على قلوب المعرضين .وفي ذلك تقرير أن الانتفاع بالوحي نعمة تحتاج إلى صدق الإقبال، وأن الإعراض المتكرر عن الحق خطر على القلب ومآله.

ثم عرضت السورة ابتلاء المؤمنين بالتكاليف، وأظهرت أن صدق الإيمان لا يظهر بمجرد الدعوى، وإنما يتبين عند ورود الأمر وما يصاحبه من مشقة ومسؤولية .فكان النهي عن الوهن، والأمر بالطاعة والثبات، تربية للمؤمنين على الصبر، وتذكيرًا لهم بأن الله لا يضيع أعمالهم.

ولم تقف السورة عند الثبات في ميدان المواجهة، بل انتقلت إلى البذل والإنفاق، فكشفت عن تعلق النفوس بالدنيا، وحذرت من البخل والشح، وأعادت الإنسان إلى حقيقة افتقاره إلى الله .فالذي يمسك ماله عن حق الله لا ينقص من ملك الله شيئًا، وإنما يحرم نفسه من الخير الذي جعل الله طريقه في الطاعة والبذل.

وهنا تتجلى إحدى أعمق حقائق السورة :أن الله غني عن عباده، وأنهم هم الفقراء إليه، وأن قيامهم بأمره فضل منه عليهم، لا منّة منهم على دينه .فإذا قاموا بالحق فقد نالوا شرف العبودية، وإذا أعرضوا لم يعجز الله أن يستبدل بهم قومًا غيرهم.

ومن جهة النظم، فقد جاءت خاتمة السورة متصلة بمطلعها؛ فالمطلع يقرر اختلاف الفريقين بحسب اتباع الحق أو الباطل، والخاتمة تحذر من التولي بعد معرفة الحق، وتقرر أن الدين لا يتوقف على جماعة أو فرد .وبين المطلع والخاتمة تتتابع مشاهد الإيمان والعمل والقتال والنفاق والابتلاء والإنفاق، حتى تتضح حقيقة الطريق الذي ينبغي للمؤمن أن يسلكه.

وقد ظهر من مجموع ذلك أن السورة تجمع بين بناء العقيدة وتقويم السلوك، وبين تشريع الأحكام وتربية القلوب، وبين بيان مصائر الأمم وتوجيه الجماعة المؤمنة إلى تحمل مسؤوليتها .

فلا ينفصل فيها الاعتقاد عن العمل، ولا العمل عن الإخلاص، ولا القوة عن العدل، ولا البذل عن التوكل على الله.

كما تبين أن فساد القلب قد يظهر في كراهية الحق، أو التردد في الطاعة، أو إضمار الأضغان، أو التعلق بالدنيا، وأن صلاحه يظهر في صدق الإيمان، وحسن الاستجابة، والثبات عند التكليف، والإنفاق ابتغاء مرضاة الله.

ومن أهم النتائج العقدية التي تقررها السورة أن الوحي حق، وأن الله سبحانه هو الهادي والمضل بحكمته وعدله، وأن الجزاء الأخروي حق، وأن الأعمال لا تستقيم في ميزان النجاة مع الإعراض عن أصل الإيمان.

ومن أهم نتائجها التربوية أن المؤمن مطالب بمراقبة قلبه، وصيانة عمله، ومحاسبة نفسه، وألا يغتر بالانتساب أو بما قدم من طاعات، وأن يجعل الثبات على الحق مقدمًا على الراحة العاجلة.

ومن أهم نتائجها التشريعية أن أحكام المواجهة والأسرى محكومة بالتشريع، وأن القوة لا تبيح الظلم، وأن أحكام القتال لا يجوز اقتطاعها من سياقاتها وشروطها وموانعها.

ومن أهم نتائجها المقاصدية أن صلاح الإنسان في اتباع الوحي، وأن صدق العبودية يظهر في الطاعة والبذل، وأن الله غني عن العالمين، وأن الخسران الحقيقي هو أن يعرف الإنسان الحق ثم يعرض عنه.

وخلاصة رسالة السورة:

أن الإيمان ليس دعوى يتزين بها الإنسان، ولا معرفة يقف عند حدودها، وإنما هو اتباع للحق الذي أنزله الله، واستجابة تترجمها الأعمال، وثبات يظهر عند الابتلاء، وبذل يكشف حقيقة التعلق بالله .فمن صدق في اتباعه أصلح الله شأنه، وكفّر سيئاته، وثبته على طريقه، ومن أعرض عن الحق لم يضر إلا نفسه؛ فإن الله غني عن العالمين، ودينه قائم بنصره، يختار له من عباده من يشاء.

وبذلك تنتهي السورة إلى تقرير حقيقة العبودية التي بدأت بها :أن النجاة في اتباع الحق، وأن الكرامة في صدق الطاعة، وأن العبد لا يستغني عن ربه، وأن الله لا يستغني عن إقامة دينه بأحد من خلقه.

والله أعلم بمراده، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا الكتاب

قراءة معاصرة في تفسير سورة محمد ﷺ، يقوم على فكرة مركزية واحدة: أن السورة **ميزان يكشف حقيقة الإيمان** من دعوى النفاق.

كما يكشف أن القتال والأسرى والنفاق والابتلاء والإنفاق ليست موضوعات متفرقة، بل وجوه متعددة لاختبار واحد:

هل يستجيب الإنسان للحق حين يقتضي منه بذلًا وثباتًا؟